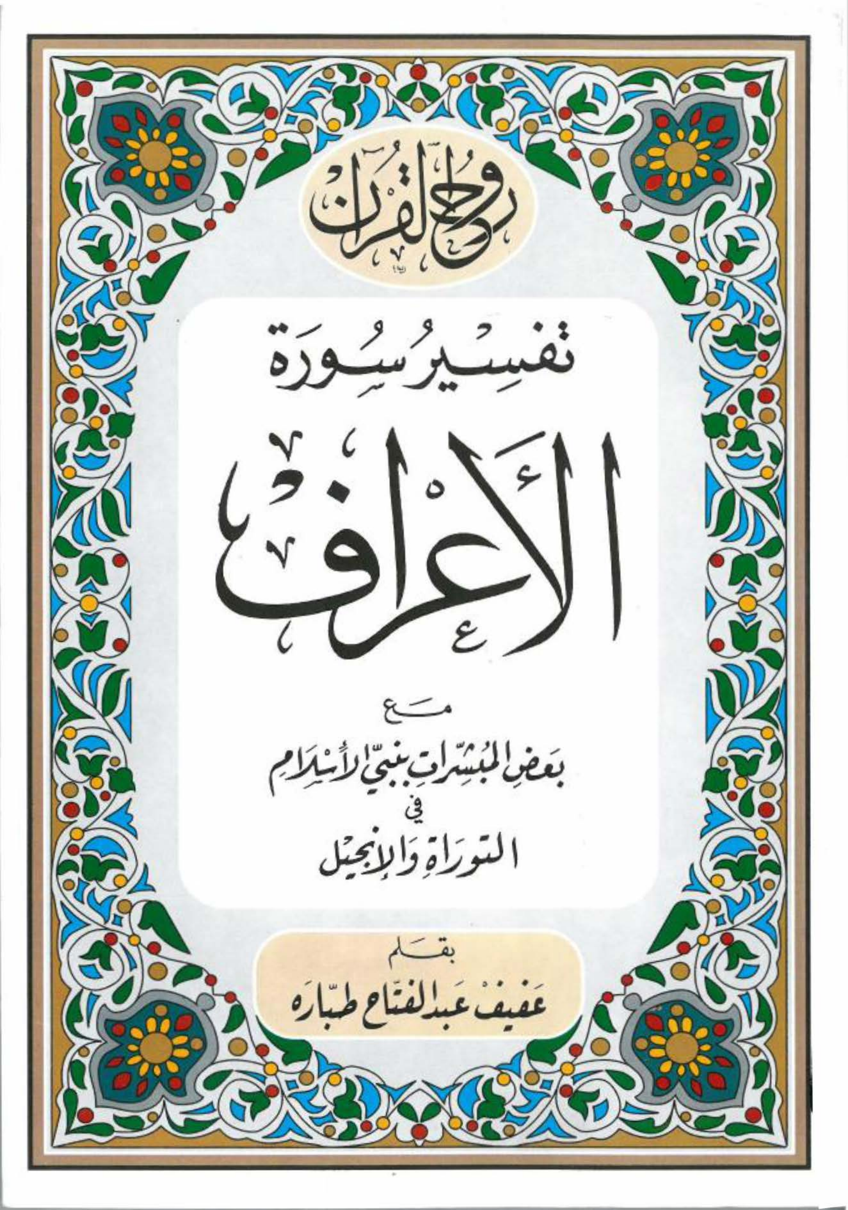


روح القرآن
تفسير سورة
الأعراف
مع
بعض المبشرات بنبي الإسلام
في
التوراة والإنجيل
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ:

إنَّ أفضلكم مَن تعلَّم القرآن وعَلَّمه



مع

بعض المبشرات بنبي الإسلام

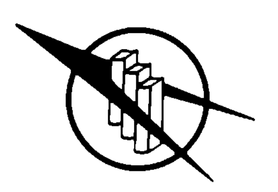
في

التوراة والإنجيل

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



الطبعة الأولى
تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٢

تعريف بهذه السورة

سورة الأعراف مكية أي أنها نزلت بمكة، وقيل نزل بعضها بالمدينة المنورة وهي ثماني آيات تبتدىء بقوله تعالى: ﴿**واسألهم عن القرية. . .**﴾ وتنتهي بقوله تعالى: ﴿**وإذ نتقنا الجبل. .**﴾.

وهذه السورة من السبع الطوال التي جعلت في أول القرآن لطولها وهي سُور: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، براءة.

ولهذه السورة جملة أغراض منها:

- تقرير توحيد الله في العبادة والنهي عن اتخاذ شركاء له، وتقرير البعث والجزاء يوم القيامة، وتقرير الوحي والرسالة الإلهية إلى من يصطفيهم الله من خلقه ويجعلهم رسله إليهم، وتقرير نبوّة محمد ﷺ والتأكيد على أنه رسول من عند الله.

- إنذار المشركين العرب وغيرهم من سوء عاقبة الشرك وَذِكْرُ ما حل بالمشركين قبلهم من هلاك في الدنيا وما سيلقون من عذاب في الآخرة.

- ذِكْرُ قصة خلق آدم وحواء وخروجهما من الجنة بسبب ميلهما إلى وسوسة الشيطان وبيان أن عداوة الشيطان لبني آدم مستمرة إلى يوم القيامة.

- ذِكْرُ قصص بعض الأنبياء مع أممهم وما انتهت إليه أحوالهم بسبب كفرهم كما أفاضت هذه السورة في ذِكْرِ قصة موسى عليه السلام مع فرعون وفي سلوك بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام.

- تذكير الناس بنعمة خلق الأرض التي يعيشون عليها وتمكينهم من الحصول على خيراتها.

- النهي عن الفساد في الأرض التي جعلها صالحة لخير الإنسان وفائدته.

- بيان أن نبوّة محمد ﷺ منصوص عليها في التوراة والإنجيل، وأن النبي ﷺ أتى ليدعو اليهود والنصارى إلى الإسلام، وعمل كل خير وترك كل شرّ، وليحلّ لهم الطيبات التي حُرِّمت عليهم ويحرّم عليهم الخبائث، ويزيل عنهم الأثقال والشدائد من التشريعات التي كانت عليهم.

- بيان العهد الذي أخذه الله على بني آدم بأن يذعنوا له ويسلّموا بالربوبية له وحده دون سواه وأنهم أقروا واعترفوا بذلك.

- إعلام من الله بأنه سيبعث على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة.

- دعوة الناس إلى النظر في السماوات والأرض وما فيهما من إبداع وحكمة تدل على وجود خالق لهما متصف بالعلم والقدرة والحكمة وأن خالقهما هو الله الواحد الذي لا شريك له.

- الأمر بالاستماع والإنصات عند تلاوة القرآن للاستفادة مما اشتمل عليه من الفوائد الجمة التي تنفعهم في دنياهم وآخرتهم.

هذا بعض ما في هذه السورة من مواضيع اقتصرنا على ذكرها خوفاً من التطويل.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

شرح المفردات

حرج: ضيق.

لتنذر به: لتخوف وتحذر من عصيان الله.

ذِكرى: تذكّر واتعاظ.

من دونه: من سواه.

أولياء: قادة يتولون أمركم.

وكم من قرية: كثيراً من القرى (كم: هي هنا خبرية بمعنى كثير).

تذكّرون: تتعظون (أصلها تتذكرون حُذفت التاء تخفيفاً).

بأسنا: عذاب الله.

بياتاً: في الليل.

قائلون: من القيلولة وهي الاستراحة في منتصف النهار.

دعواهم: دعاؤهم وتضرعهم.

دعوة إلى اتباع هدى اللّه والتحذير من الظلم

يستهل الله تعالى هذه السورة ببيان الغاية من نزول القرآن فيقول:

﴿الٓمٓصٓ[١] . كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي هذا القرآن أُنزل إليك يا محمد من ربك، ولم يصرّح القرآن باسم الذي أنزله لأنه مستغنٍ عن التعريف لأن الذي ينزل الكتب المنزلة على الأنبياء هو الله سبحانه ﴿فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ حرج الصدر: ضيقه وغمه، أي فلا يكن في صدرك يا محمد ضيق من تبليغ القرآن للناس، وكان النبي ﷺ يعتريه الضيق بسبب تكذيب المشركين نبوّته، أو بسبب خوفه من التقصير في إبلاغ رسالة الله إلى قومه، أو بسبب تعجيز قومه إياه بما يطلبون منه. قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[هود: ١٢] ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ وذِكْرى لِلْمُؤْمنينَ﴾ أي أُنزل إليك القرآن يا محمد لتخوّف به الكافرين من عذاب الله إن لم يؤمنوا، ولتذكّر وتعظ به المؤمنين لأنهم هم المستعدون للاهتداء به.

﴿ٱتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبِّكُمْ﴾ اتبعوا أيها الناس ما أُنزل إليكم من ربكم وهو القرآن واعملوا بهديه، لأن الله الذي أنزله هو خالقكم ومربيكم ومدبّر أموركم ﴿ولا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ولا تتبعوا من غير ربكم أولياء من رؤسائكم

---

(١) هذه الأحرف وغيرها من الأحرف في أوائل بعض السور تقرأ حرفاً حرفاً، قيل في تفسيرها عدة أقوال منها: إنّ هذا القرآن المعجز ببلاغته وهديه مؤلف من هذه الأحرف وغيرها، ومع ذلك لم يقدر المشركون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه، وقيل إن هذه الأحرف من الأسرار التي لا يعلمها إلاّ الله، وقيل هي أسماء للسور، وقيل: إن العرب لما سمعوا القرآن لغوا فيه وانصرفوا عنه فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم، وسماعهم سبباً لاستماع ما بعد ذلك من الآيات. وقيل غير ذلك والله أعلم.

وقادتكم فيما يحللونه لكم ويحرمونه عليكم بما يخالف شرع الله، وبما يصرفونكم عن الحق إلى الأهواء والبدع ﴿قَلِيلاً مَا تَـذَكَّـرُونَ﴾ أي ما تتعظون إلا قليلاً من حيث لا تتأثرون بما يُتلى عليكم من القرآن ولا تعملون بموجبه، ويجوز أن يراد به النفي المطلق أي لا تتعظون أصلاً به.

﴿وَكَـمْ مِـنْ قَـرْيَـةٍ أَهْـلَـكْـنَـاهَـا﴾ أي وكثير من أهل القرى أهلكهم الله بسبب ظلمهم ﴿فَـجَـاءَهَا بَـأْسُـنَـا بَـيَـاتاً﴾ أي جاءهم عذاب الله ليلاً كما حصل لقوم لوط ﴿أَوْ هُمْ قَائِـلُونَ﴾ أو جاءهم العذاب وقت القيلولة وهي النوم وقت الظهر، أو الاستراحة عند منتصف النهار ولو كانت بلا نوم، كما جرى لقوم شعيب، وخُصّ هَذَان الوقتان من بين أوقات الليل والنهار لأنهما وقت الغفلة والدعة فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع وقعاً.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُم إِذْ جَاءَهُم بأْسُـنَـا﴾ أي فما كانوا يدّعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه، أو بمعنى: فما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين نزول عذاب الله بهم ﴿إلاّ أَنْ قَالوا إِنَّـا كُـنَّـا ظَـالِـمينَ﴾ إلا اعترافهم بأنهم كانوا ظالمي أنفسهم بكفرهم، ولكن اعترافهم هذا لن ينجيهم من عذاب الله، والتوبة لا تنفع آنذاك.

وقفة عند قول الكفار: ﴿إِنَّا كُـنَّـا ظَالِمينَ﴾ فالظلم يطلق على الشرك بالله كما جاء في القرآن ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، كما يطلق على الكفر بالله والتعدي على حدوده، والانتقاص من حقوق الناس، فالظلم من أسباب هلاك الأمم كما جاء في القرآن ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠ ﴾

شرح المفردات

المرسلين: رسل الله تعالى إلى الناس لهدايتهم.

فلنقصنّ عليهم: نخبرهم.

وما كنا غائبين: وما كان الله غائباً بعلمه عنهم.

والوزن: أي القضاء.

ثقلت موازينه: كثرت حسناته.

خفّت موازينه: خفّت أعماله الصالحة.

مكناكم في الأرض: جعلنا لكم فيها أمكنة تسكنون، وأقدرناكم على التصرف فيها.

وجعلنا لكم فيها معايش: أي ما تعتاشون في الأرض من مطاعم ومشارب.

عدالة الله في الآخرة

ثم ينتقل القرآن إلى عرض بعض مواقف الحساب في الآخرة:

يقول الله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرسِلَ إِلَيْهِم﴾ والمراد بالذين أُرسل إليهم جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم رسله. يسأل الله هؤلاء الأمم: ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل؟ وسؤاله سبحانه ليس للاستفهام والاطلاع على أخبارهم لأن الله يعلم أخبارهم بل هو سؤال توبيخ وإهانة للذين عصوه وكذّبوا رسله ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ المُرْسَلِينَ﴾ وكذلك الرسل يُسألون مع العلم بأنه لا يصدر منهم التقصير ألبتة ليظهر

عدم تقصيرهم في تبليغ ما حملوه من الرسالة الإلهية، ولتقريع الأمم إذا أنكروا تبليغ الرسل لهم.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ والله سبحانه لا يكتفي بشهادة الرسل على أممهم، ولا بإقرار الأمم على أنفسهم بما عملوا، بل يخبر الجميع بعلم ويقين بما عملوا في دنياهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ وما كان الله غائباً بعلمه عنهم حين كان الرسل يبلغون أممهم ما أمرهم ربهم بتبليغه إياهم، وما كان الله غائباً بعلمه عما كانت تفعله الأمم من أعمال.

ثم يبين القرآن العدالة الإلهية في الثواب والعقاب في الآخرة:

﴿والوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾ الوزن حقيقته معادلة جسم بآخر لمعرفة ثقله، والوزن في هذه الآية يراد به تعيين مقدار ما تستحقه الأعمال من ثواب أو عقاب تعييناً لا إجحاف فيه، أما كيفية الوزن فقيل إن ما يوزن هو الصحائف التي كتبت فيها أعمال العباد، أو إن الأعمال يقلبها الله يوم القيامة أجساماً لها وزن، وحقيقة ذلك هي في علم الله، وقيل إن الوزن آنذاك هو كناية عن القضاء العادل ﴿فَمَن ثَقُلَت مَوَازِينُهُ﴾ وثقل الموازين المراد به رجحان الأعمال الصالحة على السيئة ﴿فَأُولئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو حصول الخير والفوز بالجنة ﴿وَمَنْ خَفَّت مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولئِكَ الّذين خَسِروا أنْفُسَهُم﴾ أي حرموا أنفسهم من ثواب الله وكرامته والسعادة في الآخرة ﴿بِمَا كَانوا بآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله.

﴿وَلَقَد مكَّنَّاكُم في الأَرْضِ﴾ والمراد بالتمكين في الأرض: التمليك والقوة والقدرة على التصرف فيها، فالله يمتنّ على الجنس البشري بتمكينهم في الأرض، ولولا ذلك ما استطاعوا أن يقهروا الطبيعة ويسخّروها لمنافعهم ﴿وَجَعَلْنَا لَكُم فيها مَعَايشَ﴾ والمعايش: جمع معيشة وهي ما يقتات به الإنسان من المآكل والمشارب وما تكون به الحياة وما يتوصل به إلى العيش، لقد يسّر الله للإنسان أسباب العيش على هذه

الأرض بما أودع فيه من الاستعدادات والمعرفة لتسخير الأرض لمنافعه والحصول منها على قوته، وهذا من الآيات الباهرة على قدرة الله الحكيمة، وفضله العميم على خلقه، ولكن الناس مقابل هذه النعم ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي أن شكرهم لخالقهم قليل على هذه النعم الجليلة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

شرح المفردات

فاهبط منها: فاخرج من الجنة.

الصاغرين: الأذلاّء المهانين.

أنظرني: أخّرني وأمهلني حياً.

يوم يُبعثون: هو يوم القيامة حين يخرج الناس من قبورهم أحياء.

فبما أغويتني: فبما أضللتني.

لأقعدن لهم صراطك المستقيم: لأترصّدَنّهم وَلأَجْلِسَنّ لهم مجلس المُضِلّ.

مذءوماً: مذموماً معيباً ومحقراً.

مدحوراً: مطروداً مبعداً.

فضل اللَّه على بني آدم وإغواء الشيطان لهم

ويتابع القرآن الكريم فيذكر فضل الله على بني آدم وما خصّ آدم من تكريم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم﴾ أي ولقد خلقنا أباكم آدم ـ أيها الناس ـ من طين، ثم صورناه بشراً سوياً، وإنما ذُكر آدم بلفظ الجمع لأنه أبو البشر فكان في خَلْقِهِ خَلْقُ من خرج من صلبه ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ﴾ والملائكة أجسام خلقهم الله من نور، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والسجود في اللغة الخضوع والتذلل ويكون بانحناء وغيره. والسجود شرعاً وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة، والمراد هنا: أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتعظيم وتكريم لا سجود عبادة لأن عبادة غير الله هي من الشرك بالله وهو ما يتنزه عنه الملائكة.

وتحية الملائكة لآدم كانت إكباراً له لأنه أنبأهم بأسماء كل المسميات على الأرض وخواصها بعد أن علّمه الله إياها وعجز الملائكة عن علمها.

وبعد أن أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ﴿فَسَجدُوا إلاّ إبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدينَ﴾ أي فسجد الملائكة كلهم لآدم إلاّ إبليس فإنه أبى واستكبر عن السجود له.

وإبليس هو من جنس الجنّ وليس من جنس الملائكة وهو بامتناعه عن السجود لآدم خرج عن طاعة ربه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي قال الله تعالى له: ما منعك يا إبليس عن امتثال أمري فحملك على أن لا تسجد لآدم مع الساجدين من الملائكة، والاستفهام للتوبيخ والتقريع وليس للاستعلام لأن الله يعلم حقيقة عمله.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال إبليس: أنا خير من آدم لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار أشرف عنصراً من الطين، وهذا يستدعي في نظره تفضيله على آدم، ولكن غاب عن علمه أن الطين هو محل النبات والنمو والإصلاح، وأن النار من شأنها الإحراق والإيذاء.

وآدم أفضل وأشرف من إبليس لأن الله خلقه بيديه، قال تعالى موبخاً إبليس لرفضه السجود لآدم: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

وآدم خير من إبليس أيضاً حيث نفخ الله في آدم من روحه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

أمام رفض إبليس السجود لآدم خاطبه الله بقوله: **﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾** أي اهبط من الجنة إلى الأرض، لأن من كان قد كرّمه الله بإسكانه الجنة لا يحق له أن يتكبر فيها عن أمر الله **﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِين﴾** فاخرج من الجنة محكوماً عليك بالذلة والهوان.

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال إبليس لربه: أمهلني واتركني حياً إلى يوم القيامة، يوم يبعث الله فيه آدم وذريته لمحاسبتهم على أعمالهم، وقد طلب إبليس ذلك لغايتين: **أولاً**: أن يثأر من آدم بإغواء ذريته جميعاً. **وثانياً**: أن ينجو من الموت إذ لا موت بعد البعث.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أي قال الله سبحانه: إنك من الممهلين المؤخرين ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨]. والوقت المعلوم هو حين يُنفخ في الصور النفخة الأولى فيموت جميع الخلائق فلا يبقى غير الله الحي القيوم الذي لا يموت، أما النفخة الثانية في الصور فتكون يوم البعث حين يقوم الناس أحياء لرب العالمين، ولو

أُعطي إبليس ما سأل ربه أن يمهله إلى يوم البعث لأعطي خلوداً وبقاء لا فناء بعده.

وقد يقال: ما فائدة إجابة إبليس بإمهاله حياً إلى يوم الوقت المعلوم؟ وما الحكمة من غوايته للناس مع أن فيها إضراراً بهم؟ الحكمة في ذلك هي اختبار الله للناس وابتلاؤهم بإبليس الذي يسعى لإضلالهم، فيثاب الصالحون من الناس الذين لم يستجيبوا لوساوسه بل استجابوا لله، ويعاقب أهل الضلال على استجابتهم لإبليس.

وتابع إبليس قوله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ[1] لَهُمْ صِراطَكَ المُسْتَقيمَ﴾ أي بسبب إغوائك لي يا رب حيث صرت من أهل الضلال: أقسم لأضلّن بني آدم ولأصرفنّهُم عن طريقك القويم ودينك الحق. وقيل معنى ذلك: «فبسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغواء بني آدم»[2].

والمعتزلة يحتجون على من نسب الضلال إلى الله بقولهم: هذا قول إبليس إلاّ أن قوله ليس بحجة، كما أنهم فسروا الغيّ بمعنى الهلاك وهو تفسير تؤيده معاجم اللغة، والمعنى: فبما أهلكتني بطردك إياي من الجنة لأضلن بني آدم.

أما قعود الشيطان لبني آدم في الصراط المستقيم فهو كناية عن رصده لبني آدم ومراقبتهم لإضلالهم.

ويتابع الشيطان قوله: ﴿ثُمَّ لآتينَّهم مِنْ بَيْنِ أيْديهم وَمِنْ خَلْفِهِم وَعَنْ أيْمَانِهِمْ وعن شَمَائِلِهِمْ﴾ أي لأجتهدن في إضلال بني آدم من الجهات الأربع، والمقصود بذكر الشيطان هذه الجهات هو المبالغة في الحرص على إغواء بني آدم في كل أحوالهم بحيث لا يترك لهم فرصة للإفلات منه. وقيل: المراد بقوله تعالى ﴿مِنْ بَيْنِ أيديهم﴾ أي يحسّن لهم الدنيا في قلوبهم ويرغبهم في شهواتها وعصيان الله فيها

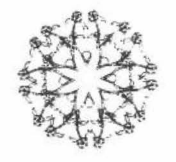
---

(١) لأقعدن: اللام في هذه الكلمة هي لام القسم.

(٢) تفسير الزمخشري.

﴿ومِنْ خَلْفِهِم﴾ أي من قِبَلِ الآخرة، فيقول لهم: لا بعث ولا جزاء ولا جنة ولا نار ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِم﴾ جمع يمين، ويكنى بها عن الحسنات، أي يصرفهم عنها ويصدهم عن الحق ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ جمع شمال، ويكنى بها عن السيئات، أي يأتيهم من جهة سيئاتهم يرغّبهم فيها ويحسّن لهم الباطل ﴿ولا تَجِدُ أكثَرَهُم شَاكِرينَ﴾ ولا تجد يا رب أكثر بني آدم شاكرين لنعمك ولا مطيعين لأمرك.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً﴾ أي قال الله تعالى لإبليس: اخرج من منزلة الكرامة أو من الجنة معيباً مذموماً مبعداً مطروداً من رحمتي ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُم لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنْكُم أَجْمَعِينَ﴾[1] فالله أخبر خبراً مؤكداً بالقسم بأن من يتبع إبليس ويطيعه ـ من ذرية آدم ـ فيما يحسّنه لهم من الكفر والشرك بالله والمعاصي فإن جزاءهم أن يكونوا معه جميعاً في جهنم. وجهنم اسم من أسماء دار العذاب في الآخرة حيث يُعذّب الكفار والعصاة بالنار المتأججة، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر حيث خاطب الله إبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].



(١) (لمن تبعك منهم لأملان جهنم) لَمَن: بفتح اللام على أنها لام القسم وجوابها (لأملأن).

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

شرح المفردات

فوسوس لهما: أغراهما بالمعصية.

ليبدي لهما: ليظهر لهما.

ما ووري عنهما: ما استتر وخفيَ عنهما.

سوْءاتهما: عوراتهما.

وقاسمهما: أقسم لهما، حلف.

فدلّاهما بغرور: فأنزلهما عن رتبة طاعة الله إلى عصيانه بخداعه لهما.

وطفقا يخصفان: وشرعا يُلزقان.

مستقرّ: استقرار.

متاع: ما تستطيبه النفس في هذه الحياة ويُنتفع به ويأتي عليه الفناء.

تُخرجون: تُخرجون أحياء يوم القيامة للجزاء على أعمالكم.

إغواء الشيطان لآدم وحواء

ويتابع القرآن فيذكر وصية الله لآدم وزوجه وهما في الجنة قبل المعصية:

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾ أي وقال الله لآدم: اسكن في الجنة أنت وزوجك وتنعّما بخيراتها، والزوج يطلق في اللغة على كل من الرجل والمرأة والمراد به هنا حواء ﴿فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فكلا من ثمار الجنة من أي مكان شئتما منها ولا تأكلا من ثمر هذه الشجرة وقد عيّنها الله لهما، والتعبير بالنهي عن الأكل من ثمر هذه الشجرة بقوله سبحانه ﴿ولا تَقْرَبا هَذِهِ الشَّجرَةَ﴾ مبالغة في تحريم الأكل منها لأن مجرد الاقتراب منها حرام، وهذه الشجرة قيل هي: شجرة العنب، وقيل: شجرة التين، وقيل: السنبلة. ولم يذكر القرآن نوعها، فالأوْلى عدم تعيينها ﴿فَتَكونَا مِنَ الظَّالمينَ﴾ أي إن أكلتما من ثمر هذه الشجرة تكونا من الظالمين من حيث عصيتما أمر ربكما.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيطَانُ﴾ والوسوسة هي الكلام الخفيّ والخطرة الرديئة التي يلقيها الشيطان في قلب الإنسان ليقارف الذنب ويغريه بالشر ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا ووري عَنْهُما مِنْ سَوْءَاتِهِما﴾ ما ووري: ما ستر وغطّي، والسوأة: فرج الرجل والمرأة، والسوأة مشتقة من السّوْء، وسميت بذلك لأن ظهورها يسوء الإنسان. والمعنى: فوسوس لهما الشيطان ليكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ما غطّي وسُتر عنهما من عورتيهما وكانا لا يريانهما من نفسيهما، ولا يرى أحدهما سوْأة الآخر. واختلف في ذلك اللباس الذي كان يسترهما، فقيل كان نوراً، وقيل من ثياب الجنة، وفي الآية دليل على أن كشف العورة من المنكرات المحرمات وأنه مستقبح في الطباع والعقول السليمة ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ وقال الشيطان لآدم وحواء: ما منعكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة ﴿إلاَّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أو تَكُونَا مِنَ الخالِدينَ﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين من الملائكة أو تكونا من ساكني الجنة أبداً فلا

يلحق بكما الموت. ولا يفهم من ذلك تفضيل الملائكة على البشر من كل وجه، فالراجح عند العلماء أن المطيعين لربهم من بني آدم أفضل من الملائكة لأنهم قهروا ما سُلّط عليهم من وساوس الشيطان وانتصروا على دواعي الشر، والملائكة ليسوا كذلك إذ لا توجد فيهم دواعي المعصية.

ولكي يدعو الشيطان آدم وحواء إلى طاعته ﴿وَقَاسَمَهُمَا[١] إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي أقسم أنه من الناصحين لهما بالأكل من الشجرة ﴿فَدَلَّاهُمَا[٢] بِغُرُورٍ﴾ التدلية والإدلاء: إرسال من أعلى إلى أسفل، أي أنزلهما إبليس عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية وجرّأهما على ذلك بما خدعهما به من القسم. والغرور: هو الخداع، وسبب انخداع آدم وحواء هو ظنهما أن أحداً لا يقسم بالله كذباً.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْءَاتُهُمَا﴾ أي فلما أكل آدم وحواء من ثمر هذه الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها انكشفت لهما عورتيهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الجنَّة﴾ وجعلا يلصقان على عورتيهما من ورق التين أو الموز أو غيرهما ورقة فوق ورقة ليستترا بها. يقول أحد المفسرين: «لمّا ذاقا ثمر الشجرة وقد نُهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلاّ وخلعا ثوب الطاعة وبدت منهما سوْأة المعصية، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما، فأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجِل عادةً من الاستتار والاستخفاء حتى لا يُرى، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما يجتنّان[٣] بها ويستتران، وما لهما إذ ذاك حيلة سوى ذلك»[٤].

---

(١) قاسمهما: صيغة مفاعلة، والمراد بها المبالغة في صدور القسم من إبليس لآدم وحواء وأنهما قبلا منه القسم.
(٢) دلاّهما: من الدالّة وهي الجرأة.
(٣) يجتنّان: يستتران.
(٤) صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف.

ثم سمعا النداء الرباني بتقريعهما ولومهما: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أي ألم أنهكما عن الأكل من ثمر تلك الشجرة ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي إن الشيطان لكما عدو ظاهر العداوة لا يريد لكما الخير.

﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ قال آدم وحواء: يا ربنا إننا ظلمنا أنفسنا بمعصيتك ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِر لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ وإن لم تغفر ذنبنا وترحمنا بفضلك نكن من الهالكين، والمغفرة من الله هي أن يصون العاصي من أن يمسه العذاب.

وبعد أن عصى آدم وحواء ربهما جاء أمره سبحانه بإخراجهما من الجنة عقاباً لهما:

﴿قَالَ اْهبِطوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ والخطاب لآدم وحواء وإبليس، أما العداوة لبعضهم البعض فإننا نراها جليّة بين البشر، فنرى العداوة بين الأخ وأخيه، وبين الجماعات والشعوب بعضها مع بعض بسبب الأنانية والطمع، والظلم المتأصل في النفوس، وبسبب وساوس الشيطان الذي لا يترك فرصة إلا وينفذ إلى قلب ابن آدم وينفث سمومه فيه ﴿وَلَكُم في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حِينٍ﴾ ولكم في الأرض استقرار وتمتّع بِنعَم الله إلى الوقت الذي تنتهي فيه أعماركم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَموتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجونَ﴾ قال الله لآدم وحواء ويشمل الخطاب ذريتهما من بعدهما: في الأرض تحيون الحياة المقدَّرة لكل منكم، وفي الأرض تموتون عند انتهاء أعماركم، ومن الأرض تُخرجون أحياء بعد مماتكم عند بعثكم أحياء يوم القيامة لمجازاتكم على أعمالكم.

ولكن ما هي الجنة التي أُهبط منها آدم؟ قيل إنها جنة عدن لا جنة الخلد، وقيل إنها جنة في الأرض مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات أشجار وثمار ونعيم.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

شرح المفردات

يواري سوْءاتكم: يستر عوراتكم.

وريشاً: لباساً تتزينون به وتتجملون كما يتجمل الطير بريشه.

يذّكّرون: يتعظون.

لباس التقوى: الإيمان وثمراته من الأعمال الصالحة.

لا يفتننكم: لا يوقعنكم في المحنة والبلاء.

قبيله: جماعته.

أولياء: نصراء وأصدقاء يتولون أمرهم.

فاحشة: الفعلة الشديدة القبح.

بالقسط: بالعدل.

وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد: المراد بالوجوه الأنفس، وإقامتها بالتوجه إلى الله تعالى، والمسجد مكان العبادة أو عند كل صلاة.

التحذير من غواية الشيطان

ويتابع القرآن فيذكر فضل الله على بني آدم باللباس الذي يسترهم ويجملهم، قال الله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً[(١)] يُوارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ أي يا بني آدم قد أنعمنا عليكم فخلقنا لكم ملابس تستر عوراتكم وتجملكم ﴿وَرِيشاً﴾ هو لباس الزينة للإنسان، وهذا التعبير مستعار من ريش الطائر لأنه زينته، فكما أن الريش زينة للطير فكذلك اللباس زينة لبني آدم ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي ولباس التقوى خير من اللباس الذي تلبسونه. وقد شبه الله التقوى باللباس من حيث إنه يقي المتقي من سخط الله ويحفظه مما يضره. والتقوى: هي الانتهاء عما نهى الله عنه من المعاصي والعمل بما أمر به من الطاعات. وتشمل التقوى: الإيمان بالله والعمل الصالح وخشية الله، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فتظهر فيه نضرة الإيمان ونوره، والسمت الحسن في وجهه ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ﴾ أي ذلك الذي أعطاه الله لبني آدم من اللباس هو من آيات الله الدالة على وجوده وقدرته وحكمته لعلَّهم يتعظون فلا يعصونه ويتذكرون فضله وإحسانه عليهم فيشكرونه على نعمه.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُم الشَّيْطَانُ كما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الجَنَّةِ﴾ أي يا بني آدم احذروا أن يوقعكم الشيطان في المحنة والبلاء ويخدعكم بوساوسه فيحسّن لكم الأفعال الرديئة والمعاصي فتحرموا من دخول الجنة وتدخلوا النار كما فتن أبويكم آدم

(١) ولكن هناك سؤال: كيف أنزل الله اللباس؟ والجواب على ذلك هو أن الله أنزل المطر من السماء الذي ينبت منه النبات، ومن النبات ما يخرج منه القطن أو الكتان، ومن دود القز الذي يتغذى بالنبات يخرج الحرير، ومن الأنعام التي تتغذى بالنبات نأخذ الصوف من الغنم، والشعر من الماعز، والوبر من الإبل التي نغزل منها جميعاً الخيوط ونصنع الثياب. فالتعبير القرآني هو في نهاية الدقة حيث قال تعالى: ﴿أنزلنا عليكم لباساً﴾ لأن مصدر كل ذلك هو المطر الذي أنزله الله من السماء، فكأن الله تعالى أنزل اللباس من السماء.

وحواء من قبل فأخرجهما من الجنة بخداعه ومكره ﴿يَنْزِعُ عَنْهُما لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ أي ينزع إبليس بوساوسه عن آدم وحواء لباسهما ليكشف عورتيهما ويظهرهما لأعينهما، وكذلك وسوس إبليس للمشركين العرب فجعلهم يطوفون حول بيت الله الحرام عراة الأجسام يُظهرون عوراتهم للناس بحجج باطلة.

وما يجري اليوم من استحداث اللباس شبه العاري الذي يكشف عن عورات المرأة ومفاتنها بما يغري الناس بالفواحش هو من وساوس الشيطان.

وما في العالم اليوم من فساد خلقي كإنشاء أندية للعراة يظهر فيها الرجال والنساء عراة الأجسام، وما يحدث في الحانات من فساد خلقي، وكذلك ما يعرض في بعض القنوات الفضائية والأنترنت في الكمبيوتر من أفلام إباحية، كل ذلك من فتنة الشيطان لبني آدم أخبرنا الله بها قبل أن تقع وتنتشر ويستفحل شرها كما يحصل في هذا العصر.

﴿إِنَّه يَرَاكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي أن الشيطان يراكم هو وجماعته من حيث لا ترونهم[1] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشياطِينَ أولِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ﴾ إنا صيرنا الشياطين قرناء وأصدقاء للذين لا يوحدون الله ولا يصدقون بنبوة محمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمرنَا بِهَا﴾ والفاحشة: هي الفعلة المتناهية في القبح، والمراد بها هنا طواف المشركين العرب ببيت الله الحرام عراة الأجسام ويشمل ذلك عبادتهم للأصنام، وحجتهم بأنهم وجدوا آباءهم يفعلون ذلك فهم يقلدونهم، كما زعموا أن الله أمرهم بذلك.

أما حجة المشركين في تقليد الآباء فهي حجة واهية، فمن قال إن آباءهم كانوا

---

(١) يرى بعض العلماء أن الجن لا يُرون على حقيقتهم أما إذا تمثلوا بصور أخرى فإنهم يُرون، ورؤيتهم متمثلين في أشكال الجسمانيات مقصورة على عصر النبوة كما حدث للنبي سليمان عليه السلام ونبينا محمد ﷺ.

على هدى من الله؟ ومتى كان تقليد الآباء هو السلوك الصحيح المنزه عن الخطأ؟ وقد جاء في القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وفي عالمنا اليوم ديانات خالطها الإشراك بالله وطرأت عليها البدع والأوهام والزيادات الغريبة فهل من المنطق أن يرث الإنسان دينه عن أبويه ويقلدهما تقليداً أعمى بدون روية ولا تفكير؟

أما ادعاؤهم بأن الله أمرهم بذلك فقد جاء الردّ الفوري عليهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ إنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ﴾ قل لهم يا محمد: إن الله لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساويها ﴿أتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه ما لا يصح وما لا يليق عن جهل منكم؟

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين: أمر ربي بالعدل والاستقامة ﴿وأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي توجهوا بنفوسكم وقلوبكم إلى الله عند كل مسجد تتعبدون فيه أو في مكان كل سجود، والمراد بالسجود الصلاة بطريق ذكر الجزء وإرادة الكل، والسجود وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتذللاً له ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ﴾ واعبدوه وحده مخلصين له الطاعة ﴿كَمَا بَدأَكُم تَعُودونَ﴾ فهو كما أنشأكم ابتداء على هذه الأرض، يعيدكم بعد الموت أحياء فيجازيكم على أعمالكم ﴿فَريقاً هَدَى وَفَريقاً حَقَّ عَلَيهِمُ الضَّلالَةُ﴾ وعند إحيائكم بعد الموت تعودون فريقين، فريقاً هداهم الله واستحقوا المثوبة والمكافأة بالجنة، وفريقاً اختاروا الضلالة فاستحقوا العقوبة في نار جهنم ﴿إنَّهُمُ اتَّخذوا الشَّيَاطِينَ أولِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقد حقت عليهم الضلالة لأنهم اتخذوا الشياطين قادة وأولياء من غير الله فأطاعوهم بكل ما حسّنوا لهم من الفواحش والمنكرات ﴿وَيَحْسَبُون أنَّهُم مُهْتَدونَ﴾ وهم مع ضلالهم يحسبون أنهم على هداية.

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ ﴾

شرح المفردات

خذوا زينتكم: الزينة هي ارتداء الثياب الجميلة والتمشط والتطيب.

ولا تسرفوا: ولا تتجاوزوا حد الاعتدال.

الإثم: فِعْلُ ما نهى الله عنه.

البغي: الكبر والظلم والفساد.

ولكل أمة أجل: أي وقت يموتون فيه وتنتهي به حياتهم.

لا يستأخرون: لا يتأخرون.

ولا يستقدمون: ولا يتقدمون.

ما أحلّه الله وما حرّمه

وبعد الدعوة إلى التوجه الكلي إلى الله في عبادته، جاء الأمر بالتزين عند الحضور إلى المساجد: ﴿يَا بني آدَمَ خُذوا زِينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ المقصود بني آدم هنا المسلمون لأن غير المسلمين لا يصلّون في المساجد. أي تجملوا ـ أيها المسلمون ـ بزينتكم عند كل مسجد وذلك بلبس الثياب الجميلة النظيفة وتسريح الشعر والتطيّب وغير ذلك إجلالاً لربكم الذي تقفون بين يديه في صلاتكم.

كما أن في مضمون هذا الخطاب إنكاراً لما كان يفعله بعض العرب في ذلك الزمن حيث كانوا يطوفون عراة الأجسام حول بيت الله الحرام، الرجال يطوفون نهاراً، والنساء تطوف ليلاً، وكانوا يقولون: لا نطوف بثيابٍ عصينا الله فيها، فأنزل الله هذه الآية تدعو لستر العورات وارتداء اللباس الجميل عند الحضور إلى المساجد.

والمسجد هو البناء الذي يجتمع فيه المصلون، والمصلون متنوعون في مهنهم، وكل مهنة لها زيها الخاص وقد تتلطخ بأوساخ المهنة أو العرق فيصدر منها رائحة تزعج المصلين ولهذا عليهم عند حضورهم إلى المسجد أن يجعلوا لهم لباساً نظيفاً لائقاً بهم يتناسب مع الوقوف بين يدي الله إجلالاً وتعظيماً وتوقيراً له.

فإذا كان الناس يلبسون أجود ما عندهم عند مقابلة رؤسائهم فالله أحق بذلك، وقد روي عن الحسن بن عليّ رضي الله عنه أنه كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه فقيل له: يا ابن بنت رسول الله لِمَ تلبس أجود ثيابك إذا قمت إلى الصلاة؟ فقال: إن الله جميل يحب الجمال فأتجمل لربي، وهو يقول سبحانه: ﴿خُذوا زِينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسجِدٍ﴾.

ثم يعرض القرآن بعض الطب الوقائي لتجنب كثير من الأمراض: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبوا ولا تُسْرِفُوا﴾ أي كلوا من حلال ما طاب لكم، واشربوا من حلال الأشربة، ولا تسرفوا بالإفراط في الطعام والشراب، بهذه الكلمات الثلاث سنّ الإسلام قانوناً يحفظ صحة الإنسان، فالإنسان إذا أكثر من الطعام لم يستطع له هضماً بسهولة، ويصاب بالتخمة وعسر الهضم، وقد يحدث أن تصاب المعدة بالاتساع والتمدد نتيجة الإفراط في الطعام، فيفقد الإنسان شهيته للأكل. وقد يصاب الإنسان نتيجة ذلك بالقيء أو الإسهال، أو الإمساك والصداع.

والإسراف في الطعام يسبب البدانة والتعرض لأمراض القلب، وارتفاع الضغط

وأمراض الكلى والسكري، وقد يموت المرء بسكتة قلبية بسبب امتلاء بطنه وضغطه على القلب لمن يقاسي ضعفاً في القلب.

هذا من ناحية الصحة العامة على الإنسان، ومن جهة أخرى فإن الإسراف في الطعام يقوي الرغبة الجنسية ويؤدي بالإنسان إلى أن يعتبر الحياة مجرد متعة مادية فتضعف فيه الصفات الروحية من الإحسان والتضحية وإنكار الذات وتحل محلها الأنانية وقسوة القلب والاستكانة إلى الترف، وبالإضافة إلى ذلك فإن الإسراف في الطعام يؤدي إلى تبلّد الأذهان والانصراف عن تغذية العقل والروح بالمعارف الإنسانية المفيدة. ثم يعقّب القرآن على النهي عن الإسراف في المأكل والمشرب بقوله تعالى: ﴿إنّه لا يُحبُّ المسْرفينَ﴾ وإذا لم يحب الله عباده المسرفين في الطعام والشراب فهذا يعني أنه غير راضٍ عنهم وكفى بالإسراف إثماً.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ قل يا محمد لقومك: من حرّم زينة الله التي خلقها الله لنفع عباده؟ والزينة اسم جامع لكل شيء يتزين به من ملبس أو أداة للركوب أو حلي للنساء، فضلاً عن المسكن الجميل بدون إسراف، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة إذا لم تكن مما حرمها الله ﴿والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ وقل لهم: من حرّم الطيبات الحلال من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس ويشربونه، وقد جاءت الآية بصيغة الاستفهام المتضمن الإنكار على من حرّم ذلك على نفسه أو حرّمه على غيره ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِين آمَنُوا في الحَياةِ الدُّنْيَا﴾ وقل لهم يا محمد: هذه الطيبات نعمة من الله ما كان ينبغي أن يتمتع بها إلا الذين آمنوا في الدنيا وإن شاركهم الكفار في التمتع بها ﴿خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ وهي مختصة بالمؤمنين يوم القيامة لا يشاركهم فيها الكفار ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل هذا التفصيل في بيان الحلال والحرام يبين الله سائر الأحكام لقوم يعلمون الحكمة منها وما تشتمل عليه من توجيهات سامية وفوائد جمة.

وبعد أن ذكر الله ما أباحه من الزينة والطيبات من الرزق للذين آمنوا ذكر ما هو محرم عليهم: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وقل لهم يا محمد: إنما حرّم ربي الأمور البالغة في القبح سواء منها ما يرتكب سراً وما يرتكب علانية، والفواحش جمع فاحشة وهي ما قبح وفحش من قول أو فعل، وأكثر ما تطلق الفاحشة على الزنا، وقد جاء في القرآن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، كما حرم الله ﴿والإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ وحقيقة الإثم أنه جميع المعاصي والذنوب كما أنه يطلق على الخمر وهي المدخل لاقتراف الذنوب، وقد جاء في القرآن ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، والبغي: هو الظلم والكبر والاستطالة على الناس، والمراد ﴿بغير الحق﴾ أن يطلب الإنسان ما ليس له بحق، فإذا طالب بحقه خرج عن أن يكون بغياً.

كما حرّم الله ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّل بِهِ سُلْطَاناً﴾ أي وأن تجعلوا لله شريكاً دون حجة صحيحة أو دليل قاطع، والمراد التهكم بالمشركين لأن الله لم ينزل من السماء برهاناً على رسله بأن له شريكاً في ملكه ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ والقول على الله بغير علم هو من أعظم المحرمات وهو منشأ البدع والتحريفات التي طرأت على الأديان المنزلة بما أضافه رجال الدين إلى دينهم من الحلال والحرام بما لم يأذن به «وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبوداً من دون الله يقربه ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته كما تكون الوسائط عند الملوك، فكل مشرك قائل على الله بغير علم»[1].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي ولكل جماعة من المكذبين لرسل الله وقت معين لنزول

---

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا.

العذاب بهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لا يَسْتَأْخِرُون سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإذا جاء وقت هلاكهم لا يتأخرون عنه برهة من الزمان ولا يتقدم هلاكهم على الوقت الذي حدده الله لهم، وهو وعيد لأهل مكة الذين ناوؤوا رسول الله، ولكل أمة تخرج عن هدى ربها ويشيع فيها الظلم وتنغمس في الفواحش والمنكرات.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

شرح المفردات

يقصون: يتلون ويحدّثون.

واستكبروا عنها: تعالوا عليها ورفضوها.

فمن أظلم: أي لا أحد أظلم.

افترى: اختلق الكذب.
نصيبهم من الكتاب: حظهم مما كتبه الله لهم في الدنيا من الأرزاق والأعمار.
جاءتهم رسلنا: جاءتهم الملائكة الموكلة بقبض الأرواح.
ضلوا عنا: غابوا عنا ولم ينفعونا.
خلت: مضت.
اداركوا: تلاحقوا واجتمعوا.
أُخراهم: هم أتباع القادة والرؤساء الذين قلدوهم في الكفر.
لأولاهم: هم القادة والرؤساء الذين أضلوا غيرهم.

مصير المكذبين بآيات اللّه

وتنتقل بنا الآيات فيخاطب الله بني آدم داعياً إياهم إلى السير على المنهج الذي شرعه لهم:

﴿يَا بني آدَمَ إمَّا يَأْتِيَنَّكُم رُسُلٌ مِنْكُم يَقُصُّون عَلَيْكُم آياتي﴾ فالله سبحانه يقول: يا بني آدم إن يأتكم رسل من عندي من أبناء جنسكم يتلون عليكم الأحكام والشرائع التي أنزلتها عليهم فعليكم تصديقهم واتباع ما جاءوا به من الهدى ﴿فَمَن اتّقى وَأَصْلَحَ﴾ فمن اتقى منكم ما نهيته عنه وأصلح نفسه بفعل ما أوجبته عليه ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فلا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة لأن أمرهم يؤول إلى الأمن والسعادة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا لأن الله قد أعد لهم من النعيم ما ينسيهم آلام الدنيا ومتاعبها.

والآية تنص على أن رسل الله يكونون من البشر، ومن الأمة التي يعيشون فيها، بالإضافة إلى ما يخصهم الله بالفضائل الإنسانية العالية، فإذا جاء رسول من عند الله يعرفون صدقه وأمانته مؤيّداً بالمعجزة التي خصه الله بها أيقنوا بذلك أنه رسول من عند الله واتبعوه لأنه جاءهم بما لم يعهد لأمثاله ولا لأحد منهم.

﴿والَّذِين كَذَّبوا بِآيَاتِنَا واسْتَكْبَروا عَنْهَا﴾ وأما الذين كذّبوا بآيات الله المنزّلة على رسله واستكبروا عن الإيمان بها رغم الأدلة والبراهين على أنها من عند الله ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾ فهؤلاء مصيرهم العذاب في نار جهنم ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها، فهم يلازمون النار كما يصاحب الإنسان منا صاحبه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذباً كمن ادعى بأن لله شريكاً، أو ولداً، أو بلّغ عنه بما لم يأمر به ﴿أوْ كَذَّبَ بآياتِهِ﴾ أي أنكر الآيات المنزلة على رسل الله، ويشمل ذلك الإنكار بأن القرآن ليس منزلاً من عند الله ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُم نَصِيبُهُم مِنَ الكِتَابِ﴾ أي ينالهم في الدنيا حظهم مما قُدّر لهم وكتب لهم في اللوح المحفوظ من الأعمال والأرزاق والأعمار مع ظلمهم وافترائهم، لا يحرمون منه إلى انقضاء آجالهم تفضلاً منه تعالى رجاء أن يتوبوا ﴿حتَّى إذَا جَاءَتْهُم رُسُلُنَا يَتَوفَّوْنَهُم﴾ حتى إذا جاءتهم الملائكة الموكلة بقبض أرواحهم ﴿قَالُوا أيْنَ مَا كُنْتُم تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قالت لهم الملائكة توبيخاً وتقريعاً: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دونه ليمنعوكم من عذابه ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي غابوا وذهبوا عنا وتركونا فلم ينفعونا عند حاجتنا إليهم ﴿وَشَهدوا عَلَى أَنْفُسِهِم أَنَّهم كانوا كافرين﴾ وشهد هؤلاء الكفار على أنفسهم عند معاينتهم العذاب أنهم كانوا جاحدين وحدانية الله كافرين بعبادتهم غير الله سبحانه.

﴿قَالَ ادْخُلوا في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ في النَّارِ﴾ قال الله تعالى لهؤلاء الكافرين أو بواسطة ملك من الملائكة: ادخلوا جهنم لتعذّبوا بنارها مع جماعات مضوا قبلكم من أهل الملل الكافرة من الجن والإنس ﴿كُلَّمَا دَخَلَت أمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كلما دخلت في النار جماعة كافرة لعنت أختها أي الأمة الأخرى التي سبقتها إلى النار، وجعلت أختاً لها لأنها شبيهة لها في الملة

والضلالة. واللعن هنا الذم والدعاء بالطرد من رحمة الله، فيلعن الأتباع القادة بقولهم: أنتم أوردتمونا النار فلعنكم الله تعالى﴿**حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً**﴾ حتى إذا تلاحقوا في النار واجتمعوا فيها ﴿**قالت أُخْراهُم لأُولاَهُمْ**﴾ قالت أُخراهم في المنزلة ـ وهم الأتباع ـ في حق أُولاهم مقاماً وهم الرؤساء والقادة الذين أضلوهم. وقد يكون المعنى: قالت أخراهم أي الذين كانوا في آخر الزمان لأولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين الباطل ﴿**رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِم عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ**﴾ أي قال الأتباع مشيرين إلى قادتهم السابقين: ربنا هؤلاء أضلونا عن الهدى فعاقبهم عقاباً مضاعفاً من عذاب النار ﴿**قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ**﴾ قال الله: لكل منكم عذاب مضاعف، فالأتباع لضلالهم وانقيادهم لرؤسائهم انقياداً أعمى بدون بصيرة، والقادة والرؤساء لضلالهم وإضلال الذين اتبعوهم ﴿**ولكن لا تَعْلَمُونَ**﴾ ولكن لا تعلمون بما أعد الله لكل فريق من العذاب.

﴿**وَقَالَت أُولاَهُمْ لأُخْراهُم فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ**﴾ أي وقالت أولاهم وهم القادة لأخراهم الذين اتبعوهم بعدما سمعوا جواب الله لهم: نحن متساوون في مقدار الذنب واستحقاق مضاعفة العذاب ﴿**فَذُوقوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُم تَكْسِبونَ**﴾ أي فذوقوا مثلنا العذاب المضاعف بسبب كفركم والانقياد لنا، قالوا لهم ذلك على سبيل التشفي.



﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

شرح المفردات

يلج: يدخل.

سَمِّ الخياط: ثقب الإبرة.

مهاد: فراش.

غواش: أغطية تغطيهم، جمع غاشية.

وسعها: ما تطيقه وما تستطيع فعله في حال السعة والسهولة لا في حال الشدة.

من غلٍّ: من حقد.

مقارنة بين حال المؤمنين والكافرين في الآخرة

ثم تبين آيات هذه السورة مصير الذين يكذّبون بآيات الله واستحالة دخولهم الجنة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي إن الذين كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع، كالأدلة الدالة على وجود الله

ووحدانيته والدالة على صحة النبوات والرسل السابقين ونبوة محمد ﷺ والدالة على صحة المعاد ونحو ذلك، وبالغوا في الاستكبار عن الإيمان بها والالتفات إليها ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُم أَبْوَابُ السَّماءِ﴾ أي لا تفتح لأدعيتهم وأعمالهم أبواب القبول في السماء، أو لا تفتح لأرواحهم ـ بعد موتهم ـ أبواب السماء لتتصل بالملائكة وتنعم بالراحة وتقابل بالترحيب كما هو شأن المؤمنين، وإنما يصعد إلى الله الكلم الطيب ـ كلمة التوحيد ـ والعمل الصالح من المؤمنين يرفعه الله إليه ﴿ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ﴾ والولوج: الدخول بصعوبة، والجمل: هو الذكر من الإبل، وخص بالذِّكْرِ من بين سائر الحيوانات عند العرب لأنه أكبرها جسماً. وسمّ الخياط: أي ثقب الإبرة وهو مثل عندهم في ضيق المسلك. فهنا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة، فكما يستحيل دخول الجمل[١] من ثقب الإبرة فكذلك فإن دخول الكفار الجنة ميئوس منه ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي المجْرِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الشديد يجزي الله كل المجرمين الذين يكذبون بآيات الله.

﴿لَهُم مِنْ جَهَنَّم مِهَادٌ﴾ والمهاد جمع مَهْدٍ وهو الفراش، أي لهؤلاء المكذبين بآيات الله فرش من النار يجلسون عليها ويضطجعون ﴿وَمِنْ فَوْقِهِم غَوَاشٍ﴾ وغواش: جمع غاشية وهي الغطاء كاللحاف ونحوه، والمراد من الآية أن النار محيطة بأهل النار من جميع الجوانب، والتعبير بالمهاد والغواشي للتهكم بهم ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي ومثل هذا الجزاء من العذاب في جهنم يجزي الله الظالمين بكفرهم بآيات الله وتكبرهم عن الإقرار بها واتباعها. وقد عبر الله عنهم بالمجرمين فيما سبق، وعبر عنهم هنا بالظالمين للتنبيه على أنهم بتكذيبهم بآيات الله واستكبارهم عنها جمعوا هاتين الخصلتين.

---

(١) قد يراد بالجمل الحبل الغليظ كما جاء في اللغة، ولكن البعير هو أليق بالمعنى وأصح.

﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدّقوا بوحدانية الله، وأنه لا شريك له في ملكه ولا ولد، وصدقوا برسوله محمد واتبعوه وعملوا بما أمرهم به ربهم من الأعمال الصالحة ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ أي لا يكلف الله أحداً من الأعمال إلا قدر استطاعته ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هؤلاء هم أصحاب الجنة ماكثون فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يحرمون من نعيمها.

﴿وَنَزَعْنَا ما في صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ﴾ والنزع: قلع الشيء من مكانه، والغلّ: الحقد الكامن في الصدور. أي يُخرج الله من قلوب أصحاب الجنة الحقد والعداوة ويطهر قلوبهم منها حتى لا يكون بينهم إلا الود والتعاطف. وصيغة (نزعنا) بفعل الماضي للإيذان بتحققه فأهل الدنيا تشوب علاقاتهم الخصام والعداوة والحسد مما ينغص حياتهم. أما أهل الجنة فهم متوادون يغمرهم الحب والسلام الذي يضفي عليهم سعادة وطمأنينة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ فيرونها وهم في غرفات قصورهم تتدفق في جنات النعيم فيزدادون سروراً لا يشوبه كدر.

﴿وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الذي هَدَانَا لِهَذَا﴾ وقال المؤمنون حين رأوا كرامة الله لهم في الجنة: الحمد لله الذي هدانا لهذا النعيم المقيم بما وفقنا الله من الإيمان به والعمل الصالح ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ وما كان من شأننا ولا من مقتضى عقولنا أن نهتدي إلى الله بأنفسنا لو لا أن هدانا الله إليه بتوفيقه إيانا باتّباع رسله ومعونته لنا على طاعته ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالْحَقِّ﴾ لقد أتتنا رسل الله بالحق من عند ربنا فاهتدينا بهديهم ودخلنا الجنة مصداقاً لما وعدنا الله به ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ وتناديهم الملائكة أو يناديهم الله تعالى تشريفاً لهم: هذه الجنة التي أورثكم الله إياها بطاعتكم ربكم وما قدمتوه من عمل صالح. وعبّر القرآن عن دخولهم الجنة بالتوريث، للإيذان بكمال استحقاقهم لها كما هو شأن الميراث لا يأخذه إلا من يستحقه.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴾

شرح المفردات

فأذّن مؤذن: نادى منادٍ.

يصدون عن سبيل الله: يُعرضون عن دين الله ويمنعون الناس عنه.

ويبغونها عِوَجاً: ويريدون تغيير دين الله وتبديله عمّا جعله مستقيماً.

الأعراف: سور بين الجنة والنار، والأعراف: جمع عُرف وكل مرتفع من الأرض فهو عُرف.

بسيماهم: بعلاماتهم المميزة لهم.

ما أغنى عنكم جمعكم: ما نفعتكم كثرتكم أو جمعكم للمال.

صورة قاتمة عن أصحاب النار

ثم تنتقل بنا آيات القرآن لتخبرنا عن مشهد من مشاهد الآخرة حيث يجري حوار بين أهل الجنة وبين أهل النار ويفصل بينهما حجاب، فيخاطب بعضهم بعضاً بما يزيد أهل الجنة عرفاناً بمزيد نعمة الله عليهم ويزيد أهل النار حسرة وألماً، وفي هذا تنبيه للإنسان في الدنيا لما ينتظره في الآخرة من عذاب أو نعيم ليسلك الطريق الذي فيه نجاته ويرجع إلى الله تائباً.

﴿وَنَادَى أَصْحابُ الجنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ أي ونادى أهل الجنة أهل النار بقولهم: لقد وجدنا ما وعدنا ربنا على لسان رسله من النعيم والكرامة حقاً ﴿فَهَلْ وَجَدْتُّم مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ فهل وجدتم ما توعدكم الله به من العذاب حقاً ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ قال أصحاب النار متحسرين: نعم لقد وجدنا ذلك ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُم أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ التأذين: رفع الصوت بالإعلام بالشيء، أي فنادى منادٍ من الملائكة ـ بين أهل الجنة وأهل النار ـ بأن الطرد والإبعاد من رحمة الله واقعان على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسل الله وعصيانهم أمر ربهم.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ﴾ والصد: المنع، والذين يصدون عن سبيل الله هم من امتنعوا عنه ولم يتبعوه، وصدوا غيرهم عن اتباعه بالطعن بدين الله وإلقاء الشبه عليه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ ويطلبون لدين الله المستقيم العوج بأن يغيروا طريقته التي شرعها الله لعباده، وأن يجعلوا دين الله على هواهم بتحليل ما حرمه الله وتحريم ما أحله، وبما يزيدون عليه من البدع التي تشوهه وتنفر الناس منه ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ وهم بلقاء الله وثوابه وعقابه جاحدون.

﴿وَبَيْنَهُما حِجَابٌ﴾ وبين الجنة والنار حجاب وهو سور يفصل بينهما، ولهذا لا يصيب أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم الجنة ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾ والأعراف: جمع عُرف وهو كل مرتفع في الأرض، ومنه قيل عُرف الديك وعُرف الفرس، لارتفاعه عن سائر جسمه. والمعنى: وعلى أعالي هذا السور[١] رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة ومن أهل النار بعلاماتهم المميزة لهم: أهل الجنة يُعرفون بنضرة الوجوه وحسنها، وأهل النار يُعرفون بقتامة

(١) هذا السور هو ما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] أي باطن هذا السور الرحمة من ناحية أهل الجنة وظاهره المواجه لأهل النار فيه العذاب. وهذا السور أو الحجاب هو المسمى بالأعراف.

الوجوه وقبحها. وهؤلاء الرجال الذين هم على أعالي السور قيل فيهم عدة أقوال منها:

ـ هم فضلاء المؤمنين وكان ذلك زيادة في ثوابهم ومبالغة في كرامتهم.

ـ هم الأنبياء والرسل لأنهم شهداء على قومهم فيمن اتبعهم وفيمن أعرض عنهم.

وقيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار فحبسوا هناك حتى يقضي الله فيهم.

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُم لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُم يَطْمَعُونَ﴾ أي ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة بالتحية لهم وإخبارهم بسلامتهم من العذاب والآفات حال كون أصحاب الجنة لم يدخلوها بعد وهم يطمعون في دخولها، أو أن أصحاب الأعراف يطمعون في دخولها.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أبصَارُهُم تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ وإذا حولت أبصار أهل الأعراف جهة أصحاب النار، وقد جاء التعبير بلفظ (صُرِفَتْ) وهو الفعل المبني للمجهول الذي يفيد أنهم لم يلتفتوا إلى جهة أهل النار إلا مجبرين على ذلك لا باختيارهم لأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وعند رؤية رجال الأعراف أهل النار وما يقاسونه من العذاب تضرعوا إلى الله بأن لا يجعلهم معهم.

﴿ونَادَى أَصْحَابُ الأعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ والظاهر أن هذا النداء صادر من بعض أصحاب الأعراف لمن كانوا يعرفونهم من الزعماء والأغنياء الذين أبطرهم غناهم، واحتقروا ضعفاء المؤمنين لفقرهم، نادوهم وهم يُعذَّبون في نار جهنم على سبيل التوبيخ: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى[١] عَنْكُم جَمْعُكُم وَمَا كُنْتُم تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي هل نفعكم ودفع عنكم عذاب جهنم جمعكم للمال وكثرة أتباعكم

(١) ما أغنى: يجوز أن تكون (ما) استفهامية للتوبيخ والتقريع ويجوز أن تكون (ما) نافية.

وما كنتم تستكبرون على الضعفاء والفقراء، ثم يشيرون إلى أولئك الضعفاء ﴿أهـؤُلاَءِ الّـذينَ أقْسَـمْـتُـم لا ينَـالُـهُـمُ اللَّـهُ بـرَحْـمَـةٍ﴾ أي أهؤلاء الذين احتقرتموهم في الدنيا وحلفتم بأن الله لا يصيبهم برحمة في الآخرة لأنه لم يعطهم في الدنيا مثل ما أعطاكم من مال وسلطان، وهنا ينادي منادٍ من قِبَلِ الله تعالى على هؤلاء الفقراء فيقول لهم: ﴿ادخُـلُوا الجنَّـة لا خَـوْفٌ عَلـيْكُم ولا أنْـتُم تَـحْـزَنُـونَ﴾ أي ادخلوا الجنة لا خوف عليكم من العذاب النازل بالكفار، ولا تحزنون على ما فاتكم من الدنيا فإن الله عوضكم عنها بما تقر به أعينكم، وقد يكون النداء صادراً من أصحاب الأعراف للمؤمنين حين رأوهم يشرعون في دخول الجنة.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

شرح المفردات

أفيضوا علينا من الماء: صبّوا علينا الماء.

غرّتهم الحياة الدنيا: خدعتهم الحياة الدنيا بزخارفها وزينتها وما هم فيه من رفاهية.

يجحدون: ينكرون.

فصّلناه على عِلْم: بيّنا فيه أصول التشريع على علم منا.
هل ينظرون إلا تأويله: أي هل ينتظرون إلا ما وُعدوا به في القرآن من العقاب والحساب.
وضل عنهم ما كانوا يفترون: وغاب عنهم ما كانوا يكذّبون بقولهم إن الله شركاء يشفعون لهم.

معاناة الكافرين في جهنم

ولمّا بيّن الله تعالى ما يقوله أصحاب الأعراف لأهل النار أتبع ذلك بذكر ما يقوله أهل النار لأهل الجنة:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ ينادونهم من شدة العطش والجوع وما يقاسونه من العذاب قائلين: صبّوا علينا الماء وأطعِمونا مما رزقكم الله. فقد طلبوا الماء لإرواء ظمئهم وإطفاء الحريق الذي يشوي أجسادهم، وكلمة **﴿أَفِيضُوا﴾** تحمل معنى التوسعة والإعطاء بكثرة، كما أنها تُشعر بأن أهل الجنة هم أعلى مكاناً من أهل النار، فأجابهم أهل الجنة **﴿قَالوا إنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرينَ﴾** أي منعهما منعاً كلياً عليكم فلا نستطيع أن نعطيكم شيئاً ونخالف ما حكم الله به عليكم.

ثم بيّن الله السبب الذي أدى بهم إلى هذا المصير السيّىء:

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي اتخذوا دينهم صُوراً ورسوماً لا تزكّي نفساً ولا تطهّر قلباً ولا تهذّب خُلُقاً، وكان اشتغالهم به على هذا النحو إضاعة للوقت فيما لا يفيد وهو بمثابة اللهو واللعب. وإن العلة الحقيقية لمسلكهم هذا هي اغترارهم بزخارف هذه الحياة، وانكبابهم على شهواتها غير آبهين لما حرّمه الله عليهم.

﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِم هَذَا﴾ من معاني النسيان في اللغة: الترك والإهمال وهذا هو المعنى المناسب للآية لأن الله سبحانه لا ينسى. والمعنى: أي يوم القيامة يتركهم الله في العذاب كالمنسيين ويهمل أمرهم كما تركوا العمل الصالح في

الدنيا استعداداً للقاء هذا اليوم ﴿وَمَا كانوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ولأنهم كانوا ينكرون آيات القرآن ولا يقرّون بأنها من عند الله.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي ولقد أنزلنا إليهم هذا القرآن مفصّلاً مبيناً الحق من الباطل، ومشتملاً على العقائد والأحكام والمواعظ عالمين بما يحتاج إليه البشر لإصلاح نفوسهم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا الكتاب فيه الهداية لمن يعملون بإرشاداته، وهو رحمة للذين يصدّقون به فيستجيبون لتوجيهاته، فينقذهم من الضلال، ويرشدهم إلى الهدى، ويخلصهم من الشقاء ويأخذ بيدهم إلى السعادة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ النظر: هنا بمعنى الانتظار، أي هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا ما توعّدهم القرآن وما يؤول إليه أمرهم من عقاب الله لهم في الدنيا ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ يوم القيامة تتحقق عاقبة ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿يَقُولُ الَّذِين نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ يقول الذين تركوا القرآن كالمنسيّ فلم يعملوا بهديه، يقولون عند معاينة العذاب: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي قد جاءت رسل الله بالحق وهو الدعوة إلى وحدانية الله والعمل الصالح والإيمان بالبعث، والثواب والعقاب في الآخرة، ثم يقولون وهم يقاسون العذاب ﴿فَهَل لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي هل من شفعاء يشفعون لنا عند الله فيرفع عنا ما نحن فيه من العذاب ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أو هل نُردُّ إلى الدنيا أحياء فنعمل فيها غير ما كنا نعمل من الشرك بالله والمعاصي، ونعمل ما يكون سبباً لمرضاة الله ونيل ثوابه ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ لقد خسروا أنفسهم في الحياة الدنيا لكفرهم بالله وانغماسهم في المعاصي، كما خسروا في الآخرة حين حرمهم الله من دخول الجنة وصاروا من أهل النار ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وظهر بطلان ما كانوا يختلقونه من الكذب من أن الأصنام شركاء لله وشفعاؤهم يوم القيامة.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

شرح المفردات

يُغشي الليل النهار: يغطي الليل النهار بظلمته فيذهب ضوؤه.

يطلبه حثيثاً: يطلب الليل النهار طلباً سريعاً.

تبارك الله: تعالى وتقدس وكثر خيره.

تضرعاً: مظهرين التذلل والخضوع والخشوع.

وخفية: سراً في قلوبكم.

بُشْراً بين يدي رحمته: مبشرات بالمطر الذي هو من رحمة الله.

أقلّت سحاباً ثقالاً: حملت سحاباً مليئاً بالأمطار.

لبلد ميت: لبلد عديم الحياة لا ماء فيه ولا نبات.

لا يخرج إلا نكداً: لا يخرج نباته إلا قليلاً.

نصرّف الآيات: نبين الآيات ونكررها بأساليب مختلفة.

من مظاهر قدرة اللّه وفضله على الناس

ثم ينتقل القرآن إلى بيان عظمة الإبداع الإلهي في هذا الكون بما يثير دواعي الإيمان بالخالق إجلالاً وخشوعاً له:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن ربكم وسيدكم ومصلح أموركم أيها الناس هو الله المعبود بحق الذي خلق السماوات وما فيها من بلايين النجوم والكواكب وغيرها، وخلق الأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال ومعادن وكائنات حية وأنواع لا حصر لها من النبات، خلق الله ذلك كله في ستة أيام، وأيام الله ليست كأيامنا، والمراد ستة أوقات من الزمن لا ندري طولها، وقد جاء في القرآن: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقد تكون أيام الله أطول من ذلك. قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ والاستواء في لغة العرب هو العلو والاستقرار ويأتي بمعنى الاستيلاء أي أن الله استوى بلا كيف على الوجه الذي يليق به مع تنزّهه عمّا لا يجوز عليه. والعرش سرير الملك «وكنّي به عن العز والسلطان والمملكة.. وعرش الله مما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم وليس كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له، تعالى الله عن ذلك»[1] والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[فاطر: ٤١].

ويقول الإمام القفال: المراد من ذلك أنه استقام ملكه واطرد أمره، ونفذ حكمه تعالى في مخلوقاته، والله تعالى دلّ على ذاته وصفاته، وكيفية تدبيره للعالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم، واستقر في قلوبهم تنبيهاً على عظمته وكمال قدرته وذلك مشروط بنفي التشبيه.

---

(١) مفردات غريب القرآن للأصبهاني.

وقد ذهب الكثير من العلماء إلى أن صفات الله تعالى هي بلا كيف، ولا انحصار، ولا تشبيه ولا تمثيل.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي يجعل الله الليل كالغشاء، فيغطي بظلمته ضياء النهار، ولم يذكر الله ما يحصل لضوء النهار اكتفاء بذكر أحدهما. وتغطية الليل للنهار كناية عن دوران الأرض حول محورها، فنصف الأرض المواجه للشمس يكون فيه النهار، والنصف الآخر من الأرض يكون فيه الليل ﴿يَطْلُبُهُ حثِيثاً﴾ أي يطلب الليل النهار طلباً سريعاً، فالحثيث: السريع، ويقال ولّى حثيثاً أي مسرعاً[١].

﴿والشَّمْسَ وَالقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أي وخلق الله الشمس والقمر خاضعين لإرادته، مسخّرين بقضائه وتصريفه، وتخصيص الشمس والقمر بالذكر مع دخولهما في خلق السماوات لمزيد فوائدهما لكوكبنا الأرضي ﴿ألا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ الخلق: إيجاد الأشياء من العدم، والأمر: التدبير والتصرف على حسب الإرادة الإلهية. فالله سبحانه هو الخالق والمدبر لشؤون الكون على حسب إرادته، فهذا الوصف الموجز من الله يستوعب جميع الأمور التي تتعلق بصفاته على غاية الاستقصاء ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ أي كثر خيره وإحسانه، من البركة بمعنى الكثرة من كل خير، أو بمعنى: تمجّد وتعظّم وتقدّس، فالله سبحانه أحسن الخالقين لأنه هو الذي خلق الكون ودبره أحسن تدبير، أما جميع الآلهة التي عبدها البشر ـ عبر العصور ـ فهي عاجزة عن الخلق والتدبير ولا تصلح للربوبية.

---

(١) في بدء خلق الأرض كانت سرعة دوران الأرض حول محورها عالية للغاية، هذا ما أظهرته الدراسات العلمية في صخور الأرض وفي هياكل الحفريات من الكائنات الحيوانية. ثم بدأت دورة الأرض تتباطأ حتى وصلت إلى إتمام دورتها حول نفسها في أربع وعشرين ساعة وهو طول النهار والليلة في زماننا الراهن. والسرعة الفائقة في دوران الأرض حول محورها أمام الشمس عند بدء الخلق سجلتها الجملة القرآنية ﴿يطلبه حثيثاً﴾ والتي سبق بها القرآن كافة المعارف البشرية بأكثر من ألف وأربعمائة من السنين. نقلاً عن الدكتور زغلول النجار باختصار.

﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً﴾ أي سلوا ربكم حوائجكم فإنه تعالى يسمع الدعاء ويجيب دعاء المضطر ادعوه بخشوع وتذلّل واستكانة، وسرًّا في أنفسكم فإن الصياح في الدعاء تجاوُز للأدب وقد كان المسلمون الأولون يجتهدون في الدعاء ولا يُسمع لهم صوت وهم يناجون ربهم. وفي الحديث الشريف عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال لقوم يجهرون بالتكبير: أيها الناس أربعوا[١] بأنفسكم إنكم ليس تدعون أصمّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم وهو أقرب إلى أحدكم من عُنُق راحلته[٢]»[٣] ﴿إنَّهُ لا يُحِبُّ المعْتَدِينَ﴾ إن ربكم لا يحب من اعتدى فتجاوز حدّه الذي رسمه الله لعباده في دعائه وسؤاله ربه، والمجاوزة في الدعاء تكون كأن يسأل الداعي ربه ما ليس له كالخلود في الدنيا، أو يطلب منزلة نبي، أو يطلب المحال، أو يدعو بمعصية.

﴿ولا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إصْلاَحِهَا﴾ أي لا تفسدوها بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق. هذا القِسْمُ من الآية فيه تحذير من تلويث البيئة التي يعيش فيها الإنسان الذي أفسد بيئته براً وبحراً وهواء في عصرنا الحاضر، بما يتصاعد من السيارات والمعامل من دخان المحروقات فترتب على ذلك كثرة الإصابة بأمراض الرئة والربو وغيرهما، وكذلك ما تؤدي مخلّفات المعامل السامة من تلويث المياه الجوفية والآبار، وتلويث الكثير من شواطىء البحار مما انعكس سلباً على صحة الإنسان.

ويشمل الفساد في الأرض قتل الناس بغير حق وتخريب منازلهم أو هدمها وقطع أشجارهم، ويكون فساد الإنسان كذلك بالزنا واللواط وتعاطي الخمور والمخدرات. ﴿وادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ أي ادعوا ربكم وأنتم على رهبة وخوف منه ورغبة في

---

(١) ارفقوا بها واقصروا من الصياح.

(٢) راحلته: ناقته.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

رحمته وفضله وإحسانه، حتى يكون الرجاء والخوف من الله للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه إلى طريق الاستقامة ويجنّبانه المساوىء والبعد عن الله ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ورحمة الله لعباده عبارة عن التفضل والإنعام عليهم وإيصال الخير لهم، أي أن رحمة الله قريبة من المحسنين في أفعالهم المتقنين لها.

فمن أحسن في العبادة نال القُربى من الله والرضى منه، ومن أحسن إلى الفقراء ابتغاء وجه الله نال الثواب منه، ومن أحسن في أمور الدنيا وأتقن عمله نال حسن النجاح، لأن الجزاء من جنس العمل ولهذا جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ فالله وحده هو الذي يطلق الرياح مبشرة بنزول المطر، فما يجري في الكون من أمور وأحداث هو بتصريف الله سبحانه، وهي لا تجري على طبيعتها خارجة عن إرادة الله، لهذا عند احتباس المطر شرع الإسلام صلاة الاستسقاء التي يطلب فيها المصلون من الله أن يمنّ عليهم بالمطر.

والرياح كما هي معلومة جعلها الله خاضعة لعوامل الضغط الجوي، ولمناطق الكرة الأرضية ولفصول السنة: فالرياح تحمل الأبخرة المتصاعدة من البحار والأنهر وتصعد بها إلى طبقات الجو العالية الباردة ويزداد تكاثفها فتتكون السحب ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقالاً سُقْنَاهُ لبَلَد مَيِّتٍ﴾ أي حتى إذا حملت الرياح السحب المثقلة بالماء، ساق الله تلك السحب نحو بلد أصابه الجفاف لا نبات فيه ولا مرعى، يشبه الميت في بطلان نفعه ﴿فَأَنْزَلْنَا بِه المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فأنزل الله المطر بهذا البلد الميت، فأخرج به أنواعاً من كل الثمرات ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الموْتَى لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ أي وبمثل ذلك الإحياء للأرض بالماء وإنبات النبات فيها يُخرج الله الموتى أحياء يوم البعث للحساب والجزاء على أعمالهم لعلّكم ـ أيها الناس ـ تتذكرون قدرة الله سبحانه وتتعظون من ذلك.

﴿والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي والأرض الطيبة الخصبة تنتفع بالمطر فيخرج نباتها نامياً كثير الحَبِّ والثمر ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لا يخْرُجُ إلاّ نَكِداً﴾ والمقصود بالبلد الذي خبث: الأرض السبخة الملحية التي لا تنتفع بالمطر، فهي لا يخرج نباتها وثمرها إلاّ قليلاً عديم الفائدة ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرونَ﴾ أي كذلك يبين الله الحجج ويضرب الأمثال على قدرته وحكمته آية بعد آية لقوم يشكرونه على إنعامه عليهم بالهداية.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فقد شبه نزول القرآن بالمطر، وشبه الله المؤمن بالأرض الطيبة التي ينزل عليها المطر فينبت فيها أنواع النبات وتثمر من كل الثمرات، وشبّه الكافر بالأرض السبخة الفاسدة فهي وإن نزل عليها المطر لا ينبت فيها النبات ولا تعطي شيئاً من الثمرات، وهكذا المؤمن ينتفع بالقرآن وتظهر آثار الهداية في أفعاله وأقواله، وأما الكافر فلا ينتفع به شيئاً ويظل على كفره وفجوره.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

شرح المفردات

الملأ: السادة والأشراف.

وأنصح لكم: أتحرى ما فيه صلاحكم قولاً وفعلاً.

ذِكْرٌ من ربكم: تذكير ووعظ من خالقكم.
لينذركم: ليخوفكم ويحذّركم عاقبة كفركم.
الفلك: السفينة.
عمين: عمي القلوب عن الحق والإيمان.

قصة النبي نوح عليه السلام

وبعد أن ذكر القرآن الدلائل والبراهين على قدرة الله في هذا الكون، أتبع ذلك بالكلام عن سيرة بعض الأنبياء مع أقوامهم الذين كفروا، وكيف أهلكهم الله بسبب تكذيبهم رسل الله ومن هؤلاء قوم نوح الذين كانوا يعبدون الأصنام، ويتخذونها آلهة من دون الله فاصطفى الله نوحاً نبياً من قومه ليحذّرهم ويخوّفهم من عذاب الله إن استمروا على ضلالهم وكفرهم.

ونوح هو أول نبي بعثه الله رسولاً إلى قومه بعد نبوة آدم وإدريس قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أي قال نوح لقومه: اعبدوا الله وحده فإنه هو وحده الذي يستحق العبادة، ليس لكم من إلّه غيره، أما آلهتكم التي صنعتموها بأيديكم ـ أي الأصنام ـ فإنها لا تستحق العبادة ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني أخاف عليكم إن لم تقبلوا ما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده عذاب يوم عظيم الهول، وهذا اليوم هو إما يوم القيامة وإما عذاب الطوفان الذي أهلكهم الله به.

﴿قَالَ الملأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ أي قال الأشراف من قوم نوح: إننا لنراك يا نوح في ضلال واضح، يقصدون بذلك أن عبادتهم للأصنام هي حق، فأجابهم نوح بأسلوب رقيق مهذب: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بي ضَلاَلَةٌ﴾ والتاء في ضلالة للمرة الواحدة، فهو نفي أن يكون فيه ضلالة واحدة، فضلاً عن أن يحيط به الضلال، فبالغ في نفي الضلال عنه، وتابع نوح قائلاً: ﴿وَلَكِنّي رَسُولٌ مِن رَبِّ

﴿الْعَالَمِينَ﴾ أي أرسلني الله إليكم لأهديكم إلى سبيل الرشاد، وأنقذكم من الهلاك بسبب ما أنتم عليه من الشرك بالله ﴿أُبَلِّغُكُم رِسَالاَتِ رَبِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ أبلغكم ما أَوْحَى الله إليّ بأن تعبدوه وحده، وأن تعملوا بالأحكام التي أمركم بها التي تصلح أحوالكم، وأنصح لكم باتباعها لتحصلوا على ثواب الله وتنجوا من عقابه، والنصح من نوح كان إرادة الخير لقومه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وأعلم من الله الأمور الغيبية، ومن شدة بطشه بأعدائه ما لا تعلمون.

ثم قال نوح لقومه: ﴿أَوَ عَجِبتُم أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي أكذبتم رسالة الله إليكم الذي أرسلني بها، وعجبتم لتذكير ووعظ من خالقكم ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُم﴾ على لسان رجل منكم تعلمون حاله من الصدق، وأنه لا يبتغي إلاّ الخير لكم ﴿لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا﴾ ليحذّركم ويخوّفكم من عذاب الله بسبب إعراضكم عن عبادته ومخالفة أمره، وتجنّب غضب الله تعالى بالامتناع عمَّا نهاكم عنه ﴿وَلَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ رجاء أن تفوزوا برحمة الله في الدنيا والآخرة. وحرف الترجي (لعلّكم) فيه تنبيه إلى أن تقوى الله ليست وحدها موجبة للرحمة الإلهية، وأن الرحمة منوطة بفضل الله، وأن المتقي ربه ينبغي ألا يعتمد على تقواه فقط، بل عليه أن يرجو دائماً رحمة ربه.

﴿فَكَذَّبوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ والَّذِينَ مَعَهُ في الفُلْكِ﴾ فأصر قوم نوح على تكذيبه، واستمروا على ذلك ألف سنة إلا خمسين عاماً على كفرهم إلى أن حق عليهم العقاب، فأمر الله نوحاً ببناء سفينة ليركبها ومن آمن معه للنجاة من الطوفان الذي قَدَّرَهُ الله لإهلاك قومه الكافرين ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِين كَذَّبوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُم كانوا قَوْماً عَمِينَ﴾ وأغرق الله قوم نوح بالطوفان بسبب تكذيبهم بآيات الله المنزلة على نوح، وتكذيبهم بالدلائل والبراهين على ربوبية الله وحده لهذا الكون. إنهم كانوا قوماً عمي البصائر عن الحق، لا يبصرون ما يسعدهم وما يُرضي الله عنهم.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾

شرح المفردات

وإلى عاد: وأرسلنا إلى قبيلة عاد.

في سفاهة: في خفة عقل.

ذِكْرٌ من ربكم: موعظة من ربكم.

خلفاء من بعد قوم نوح: أي تخلفون في الأرض قوم نوح بعد هلاكهم.

بسطة: سعة في القامة وقوة في الجسم.

آلاء الله: نعم الله عليكم.

نذر: نترك.

رجس: عذاب.

من سلطان: من حجة تحتجون بها وليس فيها دليل.

وقطعنا دابر الذين كذّبوا: أي استأصل الله المكذبين ولم يُبقِ منهم أحداً حياً.

قصة قبيلة عاد

وبعد الكلام عن قوم نوح تنتقل بنا الآيات للكلام عن قوم عاد. وعاد قبيلة من العرب البائدة أي الذين هلكوا ولم يبق منهم أحد. وكانت منازل عاد بوادي الأحقاف بأرض اليمن بين عُمان وحضرموت، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم رسوله هوداً لهدايتهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُم هُوداً﴾ أي وأرسلنا إلى عاد واحداً منهم في النسب هو النبيّ هود عليه السلام ﴿قالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي قال لقومه: اعبدوا الله واتركوا عبادة الأصنام فليس لكم إلّه يستحق أن يُعْبَد غير الله ﴿أَفلاَ تَتَّقُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي أفلا تخشون الله وتتقون ما يسخطه من الشرك والمعاصي لتنجوا من عذابه؟

ولقد رأى القوم في كلام هود جرأة آلمتهم وجرحت كبرياءهم فردوا عليه بغلظة وسوء أدب:

﴿قَالَ الملأُ الَّذِين كَفَروا مِنْ قَوْمِهِ: إِنَّا لَنَرَاكَ في سَفَاهَةٍ﴾ أي قال الأشراف الذين كفروا من قوم هود: إننا لنراك مُتَّصِفاً بخفة في العقل والجهل حيث فارقت دين قومك ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ لقد ظنوا به الكذب، وهذا الظن لم يبلغ بهم إلى درجة اليقين لأنهم كانوا يعلمون عنه الصدق والسيرة الحسنة قبل النبوة.

أجابهم هود: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بي سَفَاهَةٌ ولَكِنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ أي ليس بي خفة في عقلي كما تدّعون ولست كاذباً ولكني رسول الله إليكم من رب العالمين الذي هو رب كل شيء والمدبر والمربي للخلق ﴿أُبلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أبلغكم أوامر ربي وما نهاكم عنه، وأنا ناصح لا أبتغي إلا الخير لكم، أمين على ما أرسلني الله به إليكم من الوحي لا أكذّب فيه ولا أزيد.

﴿أَوَ عَجِبْتُم[1] أَنْ جَاءَكُم ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُم عَلَى رَجُلٍ مِنْكُم لِيُنْذِرَكُمْ﴾

---

(١) أوعجبتم: الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره: أكذّبتم وعجبتم.

أي أكذبتم وعجبتم أن جاءتكم موعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفون صدقه وسيرته الحسنة، وقد جاء ليحذركم ويخوّفكم عاقبة كفركم، إنه لا عجب في هذا الأمر. ثم أشار النبي هود إلى ما حلّ بقوم نوح: ﴿وَاذْكُروا إذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي واذكروا فضل الله عليكم إذ جعلكم خلفاء في الأرض من بعد هلاك قوم نوح ﴿وَزَادكُم في الخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي زادكم عن أمثالكم من الناس سعة في أجسامكم فجعلكم طوال القامة أشداء الأجسام ﴿فَاذْكُروا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فاذكروا نعم الله عليكم واشكروه على ما خصّكم به لعلّكم تفوزون برضاه.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آباؤنَا﴾ استغرب القوم أن يدعوهم نوح لعبادة الله وحده وترك ما كان يعبد آباؤهم من الأصنام والآلهة، فعبادتهم هذه منشؤها تقليد الآباء بغير رويّة ولا تفكير، وهكذا كان التقليد الأعمى للآباء هو عقبة في سبيل تقبّل الحقائق، وهو يؤدي بالعقل إلى الجمود والتخلف. وتابع قوم هود قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقينَ﴾ أي فأتنا يا هود بما هددتنا به من نزول العذاب فينا لعبادتنا الأصنام إن كنت من أهل الصدق فأجابهم هود: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِن رَبِّكُم رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي قد حل بكم عذاب وسخط من ربكم بسبب رفضكم دعوتي إياكم إلى عبادة الله وحده ﴿أَتُجَادِلُونَنِي في أسْمَاءٍ سَمَّيْتُموهَا أَنْتُم وآبَاؤُكُم﴾ أي أتخاصمونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة مع أن معنى الألوهية فيها معدوم، فالألوهية لها صفة النفع والضر أما أصنامكم فهي من صنع أيديكم لا تنفع ولا تضر ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي ما جعل الله لها من حجة وبرهان يدلاّن على ألوهيتها ﴿فانتظِرُوا إنِّي مَعَكُم مِنَ المُنْتَظِرينَ﴾ فانتظروا عقاب الله، إني معكم أنتظر ما يحل بكم.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ والَّذِين مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وبعد إنذار هود لهم نزل العذاب بهم كما أوعدهم به فأنجاه الله والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ

الذين كذَّبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كانوا مُؤْمِنينَ﴾ واستأصل الله المكذبين بآيات الله عن آخرهم فلم يبق منهم أحداً، وكان هلاكهم بالريح العاتية القوية التي استمرت تعصف سبع ليال وثمانية نهارات.

أما هود عليه السلام فقد أنجاه الله ومن آمن معه فجاءوا مكة وتركوا ديارهم قبل نزول العذاب بقومهم وعبدوا الله تعالى إلى نهاية آجالهم.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

شرح المفردات

وإلى ثمود: أي وأرسل الله إلى قبيلة ثمود.

بيّنة: معجزة ظاهرة واضحة.

آية: معجزة.

فذروها: فاتركوها.

وبوّأكم في الأرض: وأنزلكم في الأرض وجعل لكم فيها منازل.

وتنحتون الجبال: تنحتون الأحجار منها لبناء البيوت أو تتخذون في الجبال بيوتاً تنحتونها.

آلاء الله: نعم الله.

ولا تعثوا في الأرض: ولا تسعوا فيها بالإفساد.

الملأ: الأشراف.

فعقروا الناقة: فذبحوها.

وعتوا عن أمر ربهم: استكبروا عن امتثال أوامر الله.

فأخذتهم الرجفة: فأهلكتهم الزلزلة.

جاثمين: ميتين.

قصة قبيلة ثمود

ثمود قبيلة من العرب البائدة أي التي هلكت ولم يبق منها أحد وقد سمِّيت باسم جدّهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح. وكانت مساكنهم بالحِجْر بين الحجاز والشام وآثارهم باقية في بلادهم إلى اليوم، وقد بلغوا درجة متقدمة من الحضارة وفن العمارة.

وكان أهل ثمود يعبدون الأصنام ويتخذونها آلهة من دون الله، فأرسل الله إليهم رسوله «صالحاً» يعظهم وينصحهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، فلم يؤمنوا بالله ولم يتبعه إلا قليل منهم. فلما ألح عليهم بالوعظ والإنذار من عقاب الله طلبوا منه معجزة تشهد بأنه مُرسل من عند الله فأيده الله بالناقة التي أخرجها الله على غير المألوف، وقد روي أن صالحاً قال لقومه اخرجوا إلى هضبة من هضاب الأرض فخرجوا فإذا هي تتمخض كما تتمخض الحامل ثم إنها انفرجت فخرجت من وسطها الناقة، ولكن ليس هناك دليل جازم على كيفية حدوثها.

وكان من عظم شأن هذه الناقة أنها إذا وضعت فمها في الماء شربته كله لذلك جعل الله لها يوماً تختص فيه بشرب الماء ولهم يوم آخر لا تشاركهم في شربه وفي هذا

جاء في القرآن ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وكانت تعطيهم لبناً بدل الماء في اليوم الذي تختص فيه بشرب الماء فيشربون من لبنها ويدّخرون، وبعد هذه المقدمة نرجع إلى ما جاء في هذه السورة في شأنهم، يقول الله تعالى:

﴿وَإِلَى ثَمودَ أَخَاهُم صَالِحاً﴾ أي ولقد أرسل الله إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً في النسب **﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ﴾** أي قال صالح: يا قوم اعبدوا الله وحده الذي لا شريك له فليس لكم من إلّه غير الله يستحق العبادة **﴿قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** قد جاءتكم معجزة وبرهان على صدق ما أقول **﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُم آيَةً﴾** أي هذه الناقة التي خلقها الله هي معجزة منه إليكم، وقد أضاف صالح الناقة إلى الله تعظيماً لشأنها، ولأنها جاءتهم من عند الله بلا وسائط وأسباب معهودة **﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ اللَّهِ﴾** فاتركوها تأكل وترعى في أرض ربها، فهذه الناقة ناقة الله والأرض أرض الله فليس لكم أن تحولوا بينها وبين رزقها **﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُم عَذَابٌ أليمٌ﴾** ولا تتعرضوا لها بالأذى والسوء كمنعها من الماء أو المرعى، وغير ذلك من أنواع الإيذاء كالضرب والقتل، فإن فعلتم ذلك فسيحلّ بكم عذاب من الله شديد الإيلام.

ثم ذكّرهم صالح بنِعَم الله عليهم التي تستوجب شكره وعبادته وحده:

﴿واذْكُروا إذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ وتذكّروا فضل ربكم عليكم حيث جعلكم تخلفون قوم عاد في الأرض بعد هلاكهم **﴿وَبَوَّأَكُم في الأَرضِ﴾** أي أنزلكم وأسكنكم فيها ومتعكم بخيراتها **﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً﴾** أي تقيمون على سهولها قصوراً لسكناكم بما حذقتم من فنون البناء **﴿وتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً﴾** أي وتنحتون من صخور الجبال حجارة تبنون بها بيوتاً.

وفي هذا ما يدل على أنهم بلغوا في فن العمارة شأواً بعيداً في ذلك العهد الضارب في القدم. ثم تابع صالح قوله: **﴿فَاذْكُروا آلاءَ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا في الأَرْضِ**

﴿مُفْسِدِينَ﴾ أي تذكّروا نِعَمَ الله عليكم في ذلك واشكروه بعبادته وحده، ولا تجعلوا من هذه النعم وسيلة للفساد في الأرض والطغيان على الناس.

﴿قَالَ المَلأُ الَّذِين اسْتَكْبَروا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِين اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ أي أن الأشراف المتكبرون من قوم صالح قالوا للذين آمنوا من المستضعفين الذين اتبعوا رسول الله ﴿أَتَعْلَمُونَ أنَّ صَالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قد يراد بهذا السؤال التهكم والاستهزاء بالمؤمنين، وقد يراد به استفهامٌ حقيقي، فأجاب المؤمنون في ثقة وجرأة: ﴿قَالُوا إنّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي إننا بما أُرسل به صالح من عند ربه من الوصايا، مؤمنون ومصدّقون بها لأنها هي الحق، وهذا الردّ منهم يدل على جرأتهم وقوة إيمانهم.

﴿قَالَ الَّذين اسْتَكْبَرُوا إنَّا بِالَّذي آمَنْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي قال أولئك المستكبرون للمؤمنين: إننا جاحدون منكرون للذي آمنتم به: وهو ما يدعو إليه صالح من عبادة الله وحده.

هذا وقد جرت سُنَّة الله في خلقه بأن الفقراء المستضعفين في الأرض هم أسرع الناس استجابة لدعوة رسل الله، لأن دعوة الرسل تدعو إلى المساواة بين البشر، وتنقذهم مما هم عليه من ذُلٍّ واستعباد، واستغلال على يد كبرائهم، بينما أكابر القوم والأغنياء المترفون يكفرون بدعوة الرسل لأنها تحدُّ من شهواتهم وتقضي على امتيازاتهم التي ولّدها الغنى والنسب والجاه.

إن انتشار دعوة صالح للإيمان بالله بين المستضعفين من قومه، ترك أثراً سلبياً على طبقة الأشراف، وكان من أثر ذلك أن أقدم أحدهم على قتل الناقة متحدّين ما أنذرهم صالح من عذاب الله إن هم مسّوها بسوء ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أي فنحروا[١]

(١) النحر هو الذبح.

الناقة واقتسموا لحمها، وأسند القرآن نحر الناقة إلى جماعة مع أن الفاعل واحد وذلك لرضاهم بذلك العمل وموافقتهم عليه، ومن رضي بالحرام كمن فعله ﴿وَعَتَوْا[1] عَنْ أَمْرِ رَبِّهِم﴾ واستكبروا عن امتثال أمر ربهم بعدم التعرض للناقة بسوء.

ولم يكتفوا بنحر الناقة بل قالوا لنبيهم بتحدٍّ وجبروت ﴿وَقَالُوا يا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ المُرْسَلينَ﴾ نادوه باسمه استهانة به وقالوا ائتنا بما أوعدتنا به من العذاب إن كنت رسولاً من عند الله، وهكذا شأن الطغاة الذين يغترون بما عندهم من قوة وأنه لا يستطيع أحد ردعهم فيقترفون من المظالم ما يروق لهم. ولكن الله عجل العذاب لهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ والرجفة هي الزلزلة الشديدة العظيمة، أي أهلكتهم الزلزلة. وجاء في موضع آخر من القرآن أن هلاكهم كان بسبب الصيحة: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٦٧]. وفي موضع آخر: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧] أي أن عذابهم إنما كان بصاعقة سماوية اقترنت بصيحة هائلة وزلزلة في الأرض ﴿فَأَصْبَحُوا في دَارِهِم جَاثِمينَ﴾ أي سقطوا على الأرض صرعى لا حراك بهم.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُم وَقَالَ: يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُم رِسالَةَ رَبِّي﴾ أي فأعرض عنهم وقال: لقد أوصلت إليكم رسالة ربي بكل ما فيها من حق وعدل ﴿وَنَصَحْتُ لَكُم وَلَكِن لا تُحِبُّون النَّاصِحينَ﴾ أي لا تحبون الذين يرشدونكم إلى ما فيه خيركم. لقد ردّد صالح هذه الكلمات على مسامعهم قبل نزول العذاب بهم لأنه روي أنه خرج حينئذ ومن آمن معه من بين أظهرهم، أو أن خروجه كان بعد أن هلكوا وهو ظاهر معنى الآية وعلى هذا خاطبهم بعد موتهم على وجه التفجع عليهم أما كيفية نجاة صالح على هذا الوجه فلم يبيّنها لنا القرآن.

---

(١) يقال: عتا يعتو عُتُوّاً: إذا تجاوز الحد في الاستكبار.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

شرح المفردات

الفاحشة: الفعلة المتناهية في القبح والمقصود بها هنا اللواط.

إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء: إنكم لتباشرون الشذوذ الجنسي مع الرجال وتتركون مباشرة زوجاتكم.

مسرفون: مجاوزون الحد في المعصية.

من الغابرين: من الباقين في العذاب.

عاقبة: نهاية وجزاء.

قصة لوط عليه السلام

النبي لوط عليه السلام هو ابن أخي النبي إبراهيم عليه السلام. وكان لوط قد هاجر مع إبراهيم عليه السلام من أرض بابل في العراق إلى الشام، فنزل إبراهيم في فلسطين ونزل لوط في الأردن، وقد أرسله الله رسولاً إلى أهل قرية سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما هم عليه من المعاصي وأبرزها فاحشة (اللواط).

وقد وعظهم لوط عليه السلام ونصحهم وخوّفهم من عذاب الله إذا استمروا على فعل هذه الفاحشة فلم يرتدعوا. فلما ألحَّ عليهم بالموعظة هددوه تارة بالرجم

بالحجارة، وتارة بإخراجه من قريتهم، إلى أن جاءت الملائكة إلى لوط بصورة فتيان حسان وهو لا يعلم أنهم من الملائكة ونزلوا بضيافته، والملائكة مخلوقات جعل الله لها القدرة على الظهور بشكل بني آدم.

علم أهل قرية سدوم بنزول فتيان حسان في ضيافة لوط عليه السلام فاقتحموا بيته ليفعلوا فيهم فاحشة اللواط، فحاول لوط جاهداً في ردهم فلم يفلح، فطمس الله على أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا فيما يتصرفون فيه. ثم أخرج الملائكة لوطاً وابنتيه ومن آمن معه من القرية بعد أن أخبروه بحقيقتهم.

ولما جاء أمر الله بإهلاك هذه القرية جعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من طين متحجر زيادة في عذابهم.

وقد وردت قصة لوط في عدة سور من القرآن بتفصيلات لم تُذكر في هذه السورة وهنا في هذه السورة طرف من قصتهم. قال الله تعالى:

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾ أي واذكر يا محمد ما قاله لوط لقومه موبخاً لهم منكراً عليهم فعلهم القبيح: أتعملون الفاحشة، والفاحشة هي الفعل الدنيء الذميم المتناهي في القبح وهو اللواط **﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ﴾** أي ما سبقكم إلى فعل هذه الفاحشة أحد من الناس فأنتم أول من أحدثها وابتدعها. ثم تابع لوط قوله:

﴿إِنَّكم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي إنكم لتأتون الرجال في أدبارهم تاركين زوجاتكم اللاتي هنّ محلّ لقضاء الشهوة، وموضع لطلب اللذة، فقوم لوط كانوا يشتهون ما هو جدير بالذم والاستنكار، كما أنهم يفسدون النساء بالإعراض عنهن **﴿بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾** بل أنتم قوم عادتكم الإسراف والمبالغة في المعاصي والشهوات المحرمة.

فالله سبحانه وضع في الكون نظام الذكورة والأنوثة وجعل الإحساس الجنسي مشتركاً بينهما لبقاء النوع الإنساني والكائنات الحية، والذين يعدلون عن ذلك يخالفون سُنَّة الله في خلقه ويجاوزون حدود الله.

واللواط يجلب أضراراً للفاعل والمفعول به كما أثبت ذلك الطب الحديث كما ينقل مرض الإيدز، بالإضافة إلى السمعة السيئة عند تسرب أخبار الفاعلين إلى المجتمع.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أَن قَالُوا: أَخْرِجُوهم مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي ما كان جواب قوم لوط على وعظ نبيهم وزجرهم عن هذه الفاحشة إلا أن قالوا لبعضهم البعض: أخرِجوا لوطاً ومن اتبعه وأطاعه من قريتكم ﴿إِنَّهم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرونَ﴾ والتطهر: حقيقته النظافة، وتطلق الطهارة مجازاً على تزكية النفس والترفع عن الآثام والقبائح وهي المراد هنا، لأنهم يعدّون الاستقامة والكمال الخلقي منافراً لطباعهم، كما أن كلامهم يحمل معنى التهكم والاستهزاء بلوط ومن آمن معه، والافتخار بما هم عليه من الرذائل الخلقية كما هو شأن أهل الدعارة.

ثم يبين القرآن بلمحة سريعة ما حل بقوم لوط:

﴿فأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾ أي أنقذ الله لوطاً وأهله الذين آمنوا معه من العذاب الذي حلّ بهم إلا امرأته كانت من الباقين في القرية فأصابها العذاب كما أصاب أهل القرية جميعاً بسبب خيانتها لزوجها وعدم إيمانها.

وكانت نجاة لوط ومن آمن معه بأن أمرتهم الملائكة بالخروج من القرية ليلاً وبعد خروجهم منها جعل الله القرية عاليها سافلها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً﴾ أي وأرسل الله عليهم مطراً عجيباً بيّنه الله في موضع آخر من القرآن ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] وسجيل هو طين متحجر، فهلكوا جميعاً ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمينَ﴾ الخطاب هنا لكل من يسمع هذه القصة من أهل النظر

والاعتبار، وإن عاقبة من يتعاطون اللواط هي حلول العذاب بهم، فلتحذر الأمم من شيوع الفساد وانتشار الفواحش فيها فإنها لا تسلم من عقاب الله على أفعالها.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨٧) ﴾

شرح المفردات

مدْين: مدينة واقعة قرب «معان» بطريق الحجاز، ويطلق اسم مدين كذلك على القبيلة الساكنة فيها.

بيّنة من ربكم: حجة ومعجزة من ربكم.

فأوْفوا الكيل والميزان: أعطوا الكيل والميزان حقه للغير.

لا تبخسوا الناس أشياءهم: لا تنقصوا الناس حقوقهم.

ولا تقعدوا بكل صراط توعدون: ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق تخوّفون من آمن بالقتل.

وتصدّون عن سبيل الله: تمنعون الناس عن دين الله.

وتبغونها عوجاً: تودون سبيل الله أن تكون معوجّة.

فكثّركم: فزاد في عددكم وأغناكم.

يحكم: يقضي ويفصل.

قصة قبيلة مَدْين

مدْين هي أمة سمّيت باسم جدّها مَدْين بن إبراهيم الخليل عليه السلام. ومَدْين هو من زوجة إبراهيم الثالثة التي تزوجها في آخر عمره وهي سريّة[١] اسمها قطورا. ومدْين تزوج ابنة نبي الله لوط عليه السلام وولد له عدة أبناء، ومن ذريتهم تفرّعت بطون مَدْين، وكانوا يسكنون بين الحجاز وخليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر، وتنتهي أرضهم من الشمال إلى حدود مُعان من بلاد الشام وإلى نحو تبوك من جهة الحجاز.

وشعيب عليه السلام هو رسول من عند الله أرسله الله إلى أهل مَدْين، وكانوا أهل كفر يبخسون الكيل والميزان أي ينقصونهما للمشتري، ويفسدون في الأرض، ويقال لشعيب إنه خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته، وقد أُرسل إلى أمتين: أهل مدْين وأصحاب الأيْكة.

يقول الله تعالى: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً**﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قوم مدين أخاهم في النسب شعيباً الذي يمتد نسبه إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ فقال شعيب لقومه: اعبدوا الله وحده فليس لكم من إلَه غيره يستحق العبادة ﴿**قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُم**﴾ أي قد جاءتكم حجة وعلامة من الله على صدق نبوتي. قد تكون هذه البينة معجزة أظهرها الله على يد شعيب، وقد يراد بالبيّنة حجة أوحاها الله لشعيب تبين بطلان ما هم عليه من الكفر والأفعال السيئة ﴿**فَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ**﴾ والكيل وعاء تُكال به السوائل، كما كانت تُكال به الحبوب من قمح وشعير وغير ذلك، أي أعطوا الناس حقوقهم في الكيل والميزان بحيث يُعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان سواء في الشراء أو البيع ﴿**وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾ تبخسوا: يقال بخسه حقه إذا نقصه إياه، أي لا

---

(١) سرية: أمة مملوكة.

تنقصوهم حقوقهم في المبايعات التي لا تقوم على الوزن والكيل، كما يشمل البخس الغش والحيل الخفية التي يقوم بها البائع أو المشتري للحصول كلٌّ على أكثر من حقه، وكذلك يشمل البخس الانتقاص من قدر العلماء وأصحاب الفضل والكفاءات والنيل منهم ظلماً وحسداً.

﴿ولا تُفْسِدوا في الأَرْضِ بَعْدَ إصْلاحِهَا﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بما ترتكبون فيها من ظلم وبغي وعصيان، وإفساد كل ما تم إصلاحه على يد الأنبياء **﴿ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم إن كُنْتُم مُؤْمِنينَ﴾** أي ذلكم الذي أمرتكم به خير لكم في الدنيا والآخرة، فبادروا إلى الاستجابة لما أدعوكم إليه إن كنتم تؤمنون بالله ومصدّقين بنبوتي، أو كنتم ذوي إيمان بالحق.

﴿وَلاَ تَقْعُدوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ﴾ الصراط: هو الطريق، ومعنى توعدون: تتوعدون، والتوعد هو التخويف والتهديد، قيل إنهم كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب فيهددون من أراد الذهاب إليه والانضمام إليه **﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ﴾** وتفتنون من آمن بالله وتمنعونه عن طريق الهدى، وسبيل الله هو المفضي إلى رحمته **﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾** وتطلبون بأن يكون سبيل الله معوجّاً بإلقاء الشبه عليه **﴿وَاذْكُروا إذْ كُنْتُم قَليلاً فَكَثَّرَكُم﴾** واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم قليلي العدد فكثّر عددكم بالنسل وأغناكم بعد فقر **﴿وَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ المفْسِدِينَ﴾** وانظروا مصير المفسدين من الأمم التي كانت قبلكم كيف أهلكهم الله وأنزل بهم العذاب جزاء إعراضهم عن هدى الله وعصيانهم لأوامره.

وتابع شعيب مخاطبة قومه **﴿وَإنْ كَانَ طائِفَةٌ مِنْكُم آمنوا بالَّذي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لم يُؤْمِنُوا﴾** أي وإن كان جماعة منكم صدّقوا بما جئتهم به من عند الله واتبعوني وجماعة أخرى لم يصدّقوا بما جئت به من الهدى ولم يتبعوني **﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾** أي فاصبروا وانتظروا حتى يفصل الله بيننا وبينكم بحكمه

العادل، وهذا القول تهديد ووعيد للكفار بما سيصيبهم من عذاب، وفي الوقت نفسه وعد للمؤمنين بالنصر وحثّ لهم على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى الكفار ﴿وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ وهو خير من يفصل ويقضي بين العباد إذ لا معقّب لحكمه ولا ظلم فيه.

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

شرح المفردات

لتعودن في ملّتنا: لترجعن إلى ديننا.

أولَوْ كنا كارهين: أتعيدوننا إلى كفركم مع كرهنا إياه.

افترينا: اختلقنا.

وما يكون لنا: ولا يجوز لنا، ولا يليق بنا.

وسع ربنا كل شيء علماً: أحاط ربنا علماً بكل شيء.

افتح بيننا وبين قومنا بالحق: احكم بيننا وبين قومنا بالعدل.

الرجفة: الزلزلة الشديدة.
جاثمين: يقال جثم إذا لزم مكانه لاصقاً بالأرض لا يبرح والمراد أنهم أصبحوا موتى لا يتحركون.
كأن لم يغنوا فيها: كأن لم يقيموا في ديارهم ناعمي البال.
فتولى عنهم: فأعرض عنهم.
فكيف آسى: الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحزن، والأسى هو الحزن.

تتمة قصة قبيلة مدْين

وبعد أن سمع قوم شعيب مواعظه لهم، أجابه بعضهم بقولهم:

﴿قَالَ الملأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعكَ مِنْ قَرْيتِنَا﴾ أي قال الأشراف المستكبرون: والله لنخرجنك يا شعيب ومن آمن معك من قريتنا **﴿أو لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾** أو لترجعن إلى ديننا فنصفح عنكم ونبقيكم في وطنكم. ولا يفهم من ذلك أن شعيباً كان كافراً من قبل، ولكن أتباع شعيب كانوا قبل دخولهم في دينه كفاراً فخاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه، هذا مع العلم أن شعيباً كان يخفي دينه ومذهبه فتوهموا أنه كان من قبل على دين قومه.

أمام هذا التهديد أجابهم شعيب **﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾** الاستفهام هنا للإنكار أي أنعود إلى ملتكم ولو كنا غير مقتنعين بها كارهين لها لأنها منافية للعقول السليمة؟ لا لن يكون ذلك في أي حال من الأحوال.

وتابع شعيب قوله: **﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلى اللَّهِ كَذِباً إنْ عُدْنَا في مِلَّتكُم﴾** أي نكون قد اختلقنا على الله كذباً عظيماً إذا رجعنا إلى دينكم ونسبنا إلى الله شريكاً **﴿بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾** بعد أن هدانا الله إلى الإيمان ونجانا من الكفر والضلال **﴿وَمَا يكونُ لَنَا أن نَعُودَ فِيهَا إلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾**وما يصحّ منا الرجوع إلى دينكم وترك الحق الذي نحن عليه في حال من الأحوال إلا إذا قضت ذلك مشيئة ربنا فأمورنا راجعة إليه غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء لمن أطاعه، ويشقي من يشاء لمن عصاه.

فشعيب مع ثقته المطلقة بأن المؤمنين معه لن يعودوا إلى ملة الكفر يفوّض الأمر إلى الله تأدباً فلا يجزم بمشيئته هو، بل يترك المشيئة لله، وهذا شأن الأنبياء فهم دائماً على حذر يخافون سوء العاقبة، كما دعا رسول الله محمد ﷺ: «يا مقلّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك».

وتابع شعيب قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيءٍ عِلْماً﴾ أي أحاط خالقنا ومربّينا عِلْمَ كل شيء ما كان وما سيكون ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إلى الله وحده فوَّضنا أمورنا وعليه اعتمدنا ﴿رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالعدل ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ﴾ وأنت خير الحاكمين. والفتح كما جاء في الآية أصله في اللغة إزالة الإغلاق عن الشيء واستعمل بمعنى الحكم لأنه يفتح مواضع الحق بين الخصوم ويفصل بينهم بالعدل.

وبعد أن رأى الأشراف أن عدد المؤمنين في تزايد مما يشكل خطراً على كيانهم حاولوا أن يثنوا المؤمنين عن اتّباع شعيب بوسائل التخويف.

﴿وَقَالَ الملأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي وقال الأشراف من قوم شعيب الذين أصرّوا على الكفر، قالوا للمؤمنين: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُم إذاً لَخَاسِرُونَ﴾ أي لئن اتبعتم شعيباً في دينه وتركتم ملة آبائكم سيؤدي بكم إلى الخسران بسبب مقاطعتنا لكم وتضييقنا عليكم وفقدانكم ما تجنونه من أرباح تحصلون عليها بما نتعامل به معاً.

أمام هذا الإصرار على الكفر من قوم شعيب جاء أمر الله بإهلاكهم:

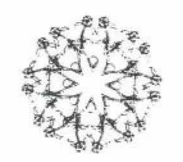
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارِهم جَاثِمِينَ﴾ أي أهلكتهم زلزلة شديدة فسقطوا باركين على ركبهم ووجوههم منكبّة على الأرض وهم صرعى لا حراك بهم.

أما شعيب والذين آمنوا معه فقد أنجاهم الله من الهلاك كما جاء في سورة هود ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[هود: ٩٤].

وكانت نجاة شعيب والذين آمنوا معه بأن فارقوا ديار العذاب، فقد قيل إنه خرج مع من آمن معه إلى مكة واستقروا فيها إلى انقضاء آجالهم.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لم يَغْنَوْا فِيهَا﴾ الذين كذبوا دعوة شعيب إلى ما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وترك الفساد في الأرض، هؤلاء كأنهم بعد هلاكهم بالزلزلة لم يقيموا ويسكنوا في دارهم أصلاً، ولم يعيشوا فيها متنعمين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الخَاسِرينَ﴾ الذين كذّبوا شعيباً كانوا هم الذين خسروا أنفسهم بكفرهم الذي أدى إلى هلاكهم. وهذا مقابل ما ذكره الأشراف سابقاً للمؤمنين ﴿لَئن اتَّبَعْتُم شُعيباً إنَّكم إذاً لَخاسِرُونَ﴾.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُم وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُم رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُم﴾ أي أعرض شعيب عن قومه وقال لهم قبل نزول العذاب بهم: لقد اجتهدت في إبلاغكم رسالات ربي وبينت لكم ما فيها مما يسعدكم في دنياكم وآخرتكم وبذلت وسعي في نصحكم وبيان الخير لكم ولكنكم أصررتم على ضلالكم وفسادكم ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرينَ﴾ فلمّا نزل ما نزل بقومه من العذاب عزّى نفسه قائلاً: فكيف أحزن على قوم أعرضوا عن هدى الله وأفسدوا في الأرض إنهم ليسوا أهلاً أن يُحزن عليهم.



﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

شرح المفردات

أخذنا: عاقبنا.

بالبأساء: الشدة والفقر وسوء الحال.

الضراء: المرض.

يضّرّعون: يخضعون لله ويتذللون له ويتوبون إليه.

عفوا: كثروا عدداً ومالاً.

السراء: النعمة ورخاء العيش.

فأخذناهم بغتة: عاقبناهم أو أهلكناهم فجأة.

يأتيهم بأسنا: يأتيهم عذابنا.

بياتاً: ليلاً.

ضحى: أول النهار بعد شروق الشمس.

مكر الله: إمهال الله لهم وإهلاكهم من حيث لا يحتسبون.

أوَ لم يهدِ: أو لم يتبين.

نطبع على قلوبهم: نختم على قلوبهم فلا يصل إليها الهدى والرشاد.

من عهد: من وفاء بعهد أوصيناهم به.

لفاسقين: لخارجين عن طاعة الله.

التحذير من الاسترسال في المعاصي

وبعد أن بيّن الله ما جرى للأمم السابقة من هلاك بسبب عصيانهم أمر ربهم بيّن بأن الهلاك سيصيب كل أمة تخرج عن طاعة ربها:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا في قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إلاّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ﴾ أي وما أرسل الله نبياً من الأنبياء في قرية من القرى يدعو أهلها إلى دين الله القويم، فأعرض أهلها عن دين الله وكذّبوا النبي الذي أرسله الله إليهم، إلا أصابهم الله قبل هلاكهم بالشدة وضيق العيش والأمراض وسوء الحال **﴿لَعَلَّهم يَضَّرَّعُونَ﴾** أي لكي يتذللوا ويبتهلوا إلى الله طالبين منه كشف ما نزل بهم من البلاء، فالشدائد تُذكِّرُ الناس بخالقهم وتدعوهم إلى محاسبة أنفسهم مما هم عليه من ظلم وعصيان لربهم.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ﴾ ثم بدّل الله حال أهل القرية مما أصابهم من شدة وبلاء إلى نعمة ورخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى استدراجاً لهم **﴿حَتَّى عَفَوْا﴾** حتى كثرت أموالهم وذريتهم. يقال عفا الشَعْرُ إذا كثر وطال. ولكنهم أمام هذه النعم لم يشكروا خالقهم ولم يتوبوا من كفرهم، بل اغتروا بما هم عليه من نعم **﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ﴾** أي قالوا

جحوداً للنعمة: إن ما أصابنا من المحن والبلايا، والرفاهية والنعيم هو شأن الدهر يداول السراء والضراء بين الناس، وليس ما أصابنا شيء جديد فهو على نمط ما أصاب آباءنا. إن قولهم هذا يدل على مبلغ استهتارهم وعدم مبالاتهم بما أصابهم من رخاء، وهي حالة تظهر في أهل الرخاء والجاه الذين يبذّرون الأموال بلا حساب، ويرتكبون أنواع الظلم والفواحش بدون اكتراث ولا إيمان بالله يردعهم. وهنا وفي ساعة الغفلة، وثمرة للطغيان الذي هم عليه تأتي العاقبة السيئة المؤلمة كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ والأخذ هنا بمعنى الإهلاك، أي فأهلكهم الله فجأة على حين غفلة دون أن يعلموا مسبقاً بما سيحل بهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا﴾ أي لو أن أهل القرى التي أهلكها الله ـ والتي ذكرها القرآن سابقاً ـ آمنوا بالله، وبما جاءت به الرسل من عند الله واتقوا الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾ والبركات: جمع بركة وهي زيادة الخير في الشيء، وبركات السماء هي المطر الذي ينتفع به العباد، وبركات الأرض هي وفرة النبات والثمار والأنعام وكل ما فيها من الخيرات.

وقد عبّر الله تعالى عن إفاضة النعم والخيرات بلفظ (فتحنا) للإيذان بأنها كثيرة كأنها تتدفق عليهم من أبواب مفتّحة ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ولكن كذّبوا رسل الله واستمروا على الكفر والمعاصي ولم يؤمنوا بالله، فكانت نتيجة أعمالهم أن عاقبهم الله بأنواع العذاب، ومن ذلك العقاب ما أصاب قبيلة قريش من قلة المطر والقحط بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، لإصرارهم على الكفر، فلما آمنوا فتح الله عليهم بركات من السماء والأرض.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ والمراد بالقرى مكة وما حولها وقيل هو عامّ في كل أهل القرى الذين كفروا بالله وكذّبوا رسله. والاستفهام بمعنى الإنكار والمعنى: أغَفَلَ أهل القرى بما حلّ بالأمم السابقة من عذاب

واعتقدوا أنهم في أمان من أن يحل عليهم عذاب الله ليلاً وهم غارقون في النوم.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أو أمِنُوا من أن يحل بهم عذاب الله في ضحى النهار عند انتشار الشمس إذا ارتفعت وهم يلهون ويلعبون لشدة غفلتهم.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ فسّر المكر هنا بالعذاب، أي أغَفَلوا عن عذاب الله وجزائه على كفرهم وظنوا أنهم في أمان منه؟ وهناك تفسير آخر: فالمكر في أصل اللغة الخداع وإذا نسب المكر إلى الله فالمراد استدراج القوم المكذبين للرسل بالنعم وإمهالهم حتى يمعنوا في الطغيان ثم يأتيهم عذاب الله بغتة من حيث لا يشعرون تشبيهاً لذلك بالخداع ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾ إنه لا يأمن من نزول العذاب من الله إلاّ الذين يسترسلون في المعاصي وهم القوم الذين خسروا أنفسهم وسعادتهم لأنهم أوقعوا أنفسهم في الدنيا في الضرر وفي الآخرة في أشد العذاب.

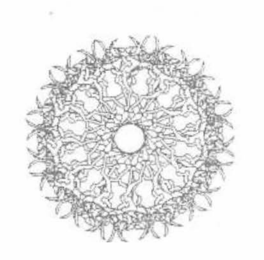
يقول الحسن البصري رحمه الله: «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن».

ويرى أئمة الأحناف أن الاسترسال في المعاصي اتكالاً على عفو الله كفر، ومثله اليأس من رحمة الله لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أوَ لم يتبيّن للذين استخلفهم الله في الأرض بعد هلاك الأمم التي كانت قبلهم بسبب ذنوبهم ﴿أَن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِم﴾ أي لو يشاء الله لفعل بهم كما فعل بمن كان قبلهم من العذاب والهلاك بسبب ذنوبهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ ويختم الله على قلوبهم بسبب اختيارهم الكفر والضلال ﴿فَهُم لا يَسْمَعُونَ﴾ فهم لا يسمعون إنذاراً ولا يعتبرون بهلاك من كان قبلهم من الأمم.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿تِلْكَ القُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِها﴾ أي هذه الأمم التي قصصنا عليك يا محمد أخبارهم وهم: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب الذين أصابهم الهلاك بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسلهم بما فيه العبرة لمن أرسلك الله إليهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُم رُسُلُهم بِالبَيِّنَاتِ﴾ ولقد جاءتهم رسل الله بالحجج الدامغة والمعجزات الباهرة على صحة ما جاءوا به من الهدى من عند ربهم ﴿فَمَا كَانوا لِيُؤْمِنُوا بمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به رسل الله بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، وإن حالهم بعد مجيء رسل الله كحالهم قبل ذلك كأن لم يبعث الله إليهم رسولاً، وذلك لعنادهم وتحجّر عقولهم ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرينَ﴾ أي كما ختم الله على قلوب كفار الأمم الماضية فلا يتقبلون الهدى كذلك يختم الله على قلوب الكافرين من قومك يا محمد بسبب إيثارهم الضلال على الهدى.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِنْ عَهْدٍ﴾ وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام وفاء بميثاق مما أوصيناهم به من الإيمان على لسان الرسل، ولا رعاية لحرمة ﴿وَإِن وَجَدْنَا أكثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ وما وجدنا أكثرهم إلا خارجين عن طاعتنا.



﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

شرح المفردات

بعثنا: أرسلنا.

ملئه: الأشراف والسادة.

حقيق على: حريص أو واجب عليّ.

بيّنة: حجة ومعجزة.

ثعبان: الذكر من الحيات.

مبين: ظاهر واضح.

ونزع يده: وأخرج يده من جيبه وهي فتحة القميص من جهة الرأس.

أرجه وأخاه: الإرجاء هو التأخير أي أخّر الحكم عليهما حتى ننظر في أمرهما.

حاشرين: جامعين للسحرة.

موسى في مواجهة فرعون

ثم ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن رسول الله موسى مع فرعون ودعوته له لتحرير بني إسرائيل من طغيانه، وبيان ما أيّد الله موسى من معجزات:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي ثم أرسل الله بعد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم موسى عليه السلام مؤيداً بالمعجزات التي تشهد أنه رسول الله حقاً واختيرت كلمة (بعث) للرسالات الإلهية، لأن البعث يقتضي أن الدين كان موجوداً سابقاً ثم غيّبته الأحداث. وحين يبعث الله رسولاً لا ينشيء عقيدة جديدة لأن الحق لا يتغير ولكن ليزيل عن العقيدة ما خالطها من خرافات وبدع ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أرسل الله موسى إلى فرعون وأشراف قومه الذين كانوا يستعبدون بني إسرائيل. وفرعون هو لقب لملوك مصر الأقدمين، وفرعون الذي يذكره القرآن هو أحد ملوكهم ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي فكفروا بهذه الآيات وكانوا بهذا الكفر ظالمين لأنفسهم إذ عَرَّضوها للهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفْسِدِينَ﴾ فانظر أيها العاقل كيف كان عاقبة فرعون وأشراف قومه وجنوده لقد أغرقهم الله في البحر جزاء كفرهم وفسادهم في الأرض.

ثم شرع القرآن يقص علينا ما جرى بين فرعون وموسى من أحداث:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ لقد قال موسى باعتزاز ويقين إنه رسول من عند رب العالمين، خالق كل شيء ومربّيه ومتعهده وهذا ردّ على ما كان يعتقده المصريون القدماء من أن للسماء إلّهاً، وللأرض إلّهاً، فأبلغهم موسى بأن إلّه الكون إلّه واحد لا شريك له.

وتابع موسى قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إلاَّ الحَقَّ﴾ أي حريص أو واجب عليّ بأن لا أنقل عن الله الذي أوحى إليَّ غير الحق والصدق ﴿قَدْ

جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُم﴾ أي قد جئتكم بحجة هي معجزة من ربكم تشهد بأني رسول الله حقًّا ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فأطلق يا فرعون سراح بني إسرائيل من الأسر والاستعباد الذي وضعتهم فيه، ودعهم يخرجون أحراراً من بلدك ليذهبوا معي إلى البلد الذي يكونون فيه أحراراً ليعبدوا الله وحده.

وهنا يردُّ فرعون على طلب موسى قائلاً: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي إن كنت يا موسى قد جئت بمعجزة واضحة الدلالة على أنك رسول من عند الله كما تدّعي فأحضرها وأظهرها لنا إن كنت صادقاً في دعواك.

وبدون تردد يظهر موسى معجزته التي أيده الله بها ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ أي فألقى موسى عصاه التي كانت بيده فإذا هي تتحول إلى ثعبان ظاهر واضح يزحف ويتحرك لا يشكّ أحد في أنه ثعبان ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ وأخرج موسى يده من جيبه[1] أو من تحت إبطه بعد أن أدخل يده فيه، فإذا هي بعد إخراجها منه تصير ذات بياض عجيب خارق للعادة لها شعاع يغلب ضوء الشمس.

أمام هذا المشهد العجيب: ﴿قَالَ الملأُ مِنْ قَوْمِ فرعَوْنَ إِنَّ هَذَا لسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي قال الأشراف من قوم فرعون مجاراة له: إن موسى الذي يدّعي أنه رسول من رب العالمين لساحر ماهر في سحره، عليم به ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ صدر هذه الآية من جملة حديث الأشراف، إذ قالوا: يريد موسى الساحر الماهر أن يخرجكم من أرض مصر بسحره البارع لينتزع ملكها من أيديكم وهنا يجيبهم فرعون: فماذا تأمرون؟ وبأي رأي تشيرون عليَّ في شأن موسى؟ إن كلام فرعون هذا

---

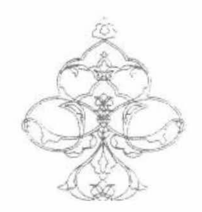
(١) جيبه: الجيب المراد به فتحة القميص من جهة الرأس.

ينبيء عن ضعفه، وهو أول معول في هدم ألوهيته، فهل يحتاج الإله إلى مشورة أحد من البشر؟!

وبعد أن طلب فرعون المشورة من حاشيته كان جوابهم إياه: **﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾** أي أخّر القضاء والحكم في أمر موسى وأخيه هارون **﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾** أي وأرسل إلى مدن مصر وقراها رجالاً يجمعون السحرة ويستحضرون كل ساحر متمرّس في علم السحر وبلغ الغاية في إتقانه.

ولا يذكر القرآن كيف جمعوا السحرة وجاءوا بهم إلى فرعون وإنما يترك للعقل إدراك ذلك دون ذكر هذه التفاصيل. هذا وقد دلت الأبحاث التاريخية على انتشار السحر قديماً في مدائن مصر في عصر الفراعنة.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ وجاء السحرة إلى فرعون بعد أن استدعاهم إليه، فسأل السحرة فرعون: هل لنا عطاء ومكافأة في حال انتصارنا على موسى **﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾** أي قال فرعون على الفور: لكم ما طلبتم، وزاد على ذلك قائلاً: إنكم ستكونون من المقربين عندي.



﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ (١١٥) قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ (١١٦) ۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢) قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ (١٢٤) قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ (١٢٦) ﴾

شرح المفردات

واسترهبوهم: بالغوا في تخويفهم.

تلقف: تأخذ وتبتلع بسرعة.

ما يأفكون: ما يكذبون ويموهون به على الناس.

فوقع الحق: ثبت وظهر الحق.

وبطل ما كانوا يعملون: وبطل السحر الذي عملوه وذهب ضياعاً.

انقلبوا صاغرين: صاروا أذلاء.

مكر مكرتموه: مكيدة وحيلة احتلتم بها.

من خلاف: من كل ناحية طرفاً: كاليد اليمنى والرجل اليسرى أو بالعكس.

منقلبون: راجعون.

أفرغ علينا صبراً: صبّ علينا صبراً كثيراً.

موسى ومعجزته الكبرى وإيمان السحرة

جاء اليوم الموعود لالتقاء السحرة بموسى، وتدفقت جماهير غفيرة إلى ساحة العرض وكان ذلك في يوم الزينة ويُظَنّ أنه يوم وفاء النيل وكان أعظم أعيادهم. وفي ساحة المبارزة خاطب السحرة موسى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أن تُلْقِيَ وَإِمَّا أن نَكُونَ نَحْنُ المُلْقِينَ﴾ أي إما أن تُلْقِيَ يا موسى عصاك أولاً التي تنقلب إلى أفعى، وإما نكون نحن الذين نُلقي حبالنا وعصينا التي تنقلب إلى أفاعٍ، وكان هذا التخيير منهم يُعبِّرُ عن ثقتهم بتغلّبهم على موسى ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ أي قال لهم موسى: ألقوا سحركم أولاً، قال ذلك استهانة بهم ويقيناً بتأييد الله إياه ولتظهر معجزته جليّة واضحة ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي فلما ألقى السحرة ما عندهم من عصيّ وحبال التي تراءت للناظرين كأنها حيّات سحروا بها أعين الناس بما جاءوا به من التمويه والتخييل ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي أدخلوا الرهبة في قلوب الجموع المحتشدة والفزع مما شاهدوه ﴿وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ وأتوا في باب السحر بأعمال عجيبة خُيِّل للناظرين أنها حقائق مع أنها ليست كذلك في عالم الواقع، فالعصي والحبال هي نفسها، والذي تغيّر هو رؤية الأشياء بفعل السحر.

﴿وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أن أَلْقِ عَصَاكَ﴾ وبعد هذا السحر العظيم أوحى الله لموسى بأن يلقي عصاه التي في يده على الأرض ففعل ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فإذا عصاه تتحول إلى حية عظيمة تبتلع بسرعة كل ما جاء به السحرة من حبال وعصيّ، وما جاءوا به من الكذب والتمويه والشعوذة ﴿فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فظهر الحق الذي جاء به موسى من عند ربه وثبت، وبطل ما قام به السحرة من السحر، وكلمة وقع استعيرت للتعبير عن الثبات والدوام لأنها في مقابل الباطل، والباطل زائل ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ فغلب موسى فرعونَ وحاشيتَه والسحرةَ في المكان الذي وقع فيه سحرهم وصاروا أذلاّء مقهورين.

﴿وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ ولما رأى السحرة تلك المعجزة عرفوا أنها ليست من السحر في شيء، فعند ذلك خرّوا سُجَّداً لله واضعين جباههم على الأرض إقراراً بربوبيته وخضوعاً له سبحانه، وشكراً له للفوز بنعمة الإيمان. وكلمة «أُلقي» توحي كأن أحداً دفعهم وألقاهم على الأرض سجّداً، أو أن الله تعالى ألهمهم ذلك وحملهم عليه، فالملقي هو الله تعالى بإلهامه لهم بالسجود حتى يذوق فرعون طعم الذل والخذلان أمام هذه الجموع الحاشدة.

وبعد أن سجدوا للّه: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارونَ﴾ أي آمنا وصدّقنا برب جميع المخلوقات ومبدع الكائنات وهو رب موسى وهارون، وخصهما الله بالذكر بعد دخولهما في جملة العالمين تفضيلاً وتشريفاً.

لقد آمن السحرة برب العالمين وأعلنوا ذلك أمام فرعون وحاشيته غير مبالين بطغيان فرعون ولكن فرعون لم يعجبه ذلك بل خاطبهم بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُم﴾ أي آمنتم وصدّقتم بالإلّه الذي دعاكم إليه موسى لعبادته قبل إذني لكم، وهذا الاعتراض يظهر غروره وجبروته، فكأن الإيمان برب العالمين يحتاج إلى الإذن منه، فهو يريد أن يحتكر ضمائر الناس وعقولهم فليس لأحدهم أن يرى رأياً غير رأيه وهذا منطق الطغاة في كل العصور الذين يقضون على حرية الأفراد والجماعات.

ثم خاطب فرعون السحرة ﴿إنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ في المَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أهْلَهَا﴾ أي أن إيمانكم برب موسى وهارون لم يقع منكم عن قناعة بل هو حيلة منكم وخديعة اتخذتموها بالاتفاق مع موسى لِتُخرجُوا من مصر سكانها الأصليين وهم القبط ويستقر لكم الأمر من بعدهم، وقد قصد فرعون من كلامه هذا أمرين:

أولاً: التمويه على الناس وتحذيرهم من الاقتداء بالسحرة في إيمانهم بالله، وإذكاء نار العداوة لموسى والسحرة، إذ ليس أشد ألماً على النفوس من مغادرة الأوطان

على كره منهم.

ثانياً: إن إيمان السحرة كان بالتواطؤ مع موسى لا عن اقتناع منهم.

ثم توعّد فرعون السحرة بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف تعلمون أنواع العذاب الذي سألحقه بكم جزاء إيمانكم برب موسى وهارون.

ثم ذكر فرعون للسحرة نوع العذاب الذي سيلحقه بهم: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ﴾ أي لأقطعن من كل واحد منكم يده اليمنى مع رجله اليسرى أو بالعكس وهذا ما يشل حركة الإنسان ويجعله عاجزاً عن فعل أيّ شيء ﴿ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُم أَجْمَعِين﴾ ثم بعد ذلك لأصلبنكم على جذوع النخل زيادة في التنكيل بكم وإرهاب من يقتدي بكم. وجاء في موضع آخر من هذه السورة: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ٧١].

هذا التهديد الفظيع لم يرهب السحرة بل ظلوا متمسكين بعقيدتهم وكان جوابهم لفرعون: ﴿قَالُوا: إنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي إننا جميعاً نحن وأنت راجعون إلى ربنا يوم الجزاء ليحاسبنا على أعمالنا فمصيرنا ومصيرك إلى الله يحكم بيننا بالحق وهو خير الحاكمين. وقد يكون المعنى: إننا إلى نعيم ربنا وثوابه الجزيل لصائرون فيثيبنا على العذاب الذي ستنزله بنا، لقد تيقنوا أن لقاء الله على الإيمان هو الخير كله، وهو أحب الأماني إلى قلوبهم.

وتابع المؤمنون من السحرة قولهم: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إلاَّ أنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ أي وما تكره منا يا فرعون وتعيب علينا إلا أننا صدّقنا بمعجزات ربنا التي تشهد بربوبيته لهذا الكون، وصدّقنا بما جاء به موسى من عند ربه. ثم توجه السحرة إلى ربهم بالدعاء: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ[١] عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

---

(١) معنى الإفراغ في اللغة: الصب، وأصله من إفراغ الإناء وهو صب ما فيه حتى يخلو الإناء مما فيه من الماء فاستعمل الإفراغ في الصبر على التشبيه بحال إفراغ الإناء بحيث يفيض عليهم ويغمرهم.

أي ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفيضه وتصبّه علينا صباً بتثبيتك إيانا على الإيمان، وتوفّنا مسلمين خاضعين لك مذعنين لأمرك غير مفتونين بوعيد فرعون.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

شرح المفردات

أتذر موسى: أتترك موسى.

نستحيي نساءهم: نترك نساءهم أحياء.

وإنا فوقهم قاهرون: وإنا مستعلون عليهم بقوة السلطان والغلبة.

والعاقبة للمتقين: والخاتمة الطيبة للذين يتقون الله.

ويستخلفكم في الأرض: ويجعلكم خلفاء فرعون في أرض مصر.

موسى يعد بني إسرائيل بالفرج

ثم ينتقل القرآن إلى ما قامت به طبقة الأشراف من تحريض فرعون على موسى ومن آمن معه من قومه:

﴿وَقَالَ الملأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا في الأَرْضِ﴾
أي وقال السادة الأشراف لفرعون: أتترك موسى وقومه أحراراً آمنين يعيثون في أرض

مصر فساداً ﴿وَيَذَرَكَ وآلِهَتَكَ﴾ ويترك موسى عبادتك وعبادة آلهتك.

وهكذا نرى دائماً حاشية السوء تحسّن للطغاة في كل عصر ما هم عليه من طغيان وظلم لأن في ذلك دوام سلطتهم ومكاسبهم المادية المستمدة من سلطة رؤسائهم، وما فعله موسى هو في نظرهم مفسد يحاول قلب نظام الحكم في مصر.

وقفة عند قوله تعالى حكاية عن ما قاله الأشراف بفرعون ﴿وَيَذَرَكَ وآلِهَتَكَ﴾ فهو حقيقة تاريخية فقد كان الملك إلّهاً في مصر وكان على الدوام ابن أمون ـ رع لا يحكم مصر بحقه الإلّهي فحسب بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلّهي، فهو إلّه رضي أن تكون الأرض موطناً له إلى حين[١] وقد جاء في القرآن أيضاً بما كان يقول فرعون لقومه ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

أما ما ذكرته الآية من أن لفرعون آلهة شتى بجانب ألوهيته فهو حقيقة تاريخية أيضاً فقد كان المصريون يعتقدون أن للسماء إلّهاً هو سيبو، وللأرض إلّهة هي نويت ومن عقائدهم أن الأبراج والنجوم قد تكون آلهة. وكان القمر إلّهاً ولعلّه كان أقدم ما عُبِدَ من الآلهة في مصر، ولكن الشمس في الدين الرسمي كانت أعظم الآلهة... وكانت بعض النباتات مقدسة لهم، وكانت الآلهة من الحيوان أكثر ذيوعاً بين المصريين من آلهة النباتات... وكان للمصريين عدد لا يحصى من صغار الآلهة[٢].

ولنرجع إلى جواب فرعون على التحريض الذي سمعه من أشراف مملكته بشأن قوم موسى حيث يقول: ﴿قال سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي سنفعل ما كنا نفعل من قبل فسنقتل الذكور عند ولادتهم ونستبقي الإناث أحياء للخدمة، وإننا فوقهم غالبون فهم الضعفاء ونحن الأقوياء.

---

(١) قصة الحضارة ـ ول ديورانت جـ٢ ص١٦١.
(٢) قصة الحضارة ـ ول ديورانت. باختصار جـ ٢ ص ١٥٦ ـ ١٦١.

ويصل إلى أسماع موسى وقومه هذا التهديد والوعيد من فرعون فيطمئنهم موسى ويواسيهم بقوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ استَعِينوا باللَّهِ واصْبِرُوا﴾ أي اطلبوا العون من الله في أموركم كافة واصبروا على البلاء ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي هذه الأرض التي تسكنون فيها ليست ملكاً لفرعون وإنما هي ملك لله رب العالمين، وهو سبحانه يورّث أرضه لمن يشاء من عباده، والإرث هو انتقال الشيء الذي في حوزة الإنسان إلى من يرثه من أقاربه بعد مماته ﴿وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والنصر والظفر والخاتمة المحمودة هي للذين يتقون ربهم فيطيعونه ولا يعصونه، وفي هذا مواساة للمضطهدين في كل العصور.

وفي لهجة تنمُّ عن الحزن خاطب بنو إسرائيل موسى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنَا﴾ أي لقد أوذينا يا موسى من قبل أن تأتينا رسولاً من عند الله وأصابنا الإيذاء والبلاء من بعد ما جئتنا بكل أنواع الظلم والاضطهاد فكأن مجيئك لم يصنع لنا شيئاً، فرد عليهم موسى بقوله: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُم وَيَسْتَخْلِفَكُم في الأَرْضِ﴾ أي لعلّ ربكم أن يهلك عدوكم فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم بعد هلاكهم. وكلمة عسى تفيد الرجاء وما بعدها مرجوّ الحصول، وإذا كانت من الله فهي تفيد التحقيق. فموسى سلك طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء، ويحتمل أن يكون قد أوحى الله إليه بذلك، وقد حقق الله هذا الرجاء فأغرق فرعون وجنوده في البحر، وأنقذ بني إسرائيل من الأسر والعبودية وملّكهم بيت المقدس ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى ربكم ما تعملون من بعدهم من طاعة لله أو عصيان له، وهذه الجملة من الآية تجري مجرى الحث على التمسك بطاعة الله سبحانه.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

شرح المفردات

أخذنا: عاقبنا.

بالسنين: بالقحط والجدب.

يذكّرون: يتعظون.

الحسنة: السعة والخصب وحسن الحال.

سيئة: القحط وسوء الحال.

يطيّروا: يتشاءموا.

إنما طائرهم عند الله: إنما سبب شؤمهم أعمالهم السيئة المكتوبة عند الله فهي التي ساقت إليهم ما يسوؤهم.

الرجز: العذاب.

ينكثون: ينقضون العهد الذي عاهدوا موسى عليه.

في اليم: في البحر.

أنواع البلاء الذي أصاب قوم فرعون

ويتابع القرآن فيذكر كيف ابتلى الله فرعون وقومه بالمصائب لعلَّهم يرجعون عن كفرهم وظلمهم ويؤمنون بالله رب العالمين:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أخذنا: الأخذ هو التناول باليد وهنا الأخذ بمعنى: الابتلاء والاختبار والامتحان. والسنين: جمع سَنَة أي عام الجدب والقحط. فالله سبحانه ابتلى آل فرعون واختبرهم بالجوع حين حبس عنهم نزول المطر وما نشأ عنه من قحط وجدب كما ابتلاهم بقلة الزروع والثمرات بتسلط الآفات والأمراض عليها **﴿لَعَلَّهُم يذَّكَّرون﴾** لعلَّهم يتعظون ويرجعون عن الكفر والظلم.

﴿فإذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ﴾ فإذا أصاب آل فرعون الرخاء والخصب وكثرة الثمار **﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾**أي قالوا نحن مستحقون لها ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الأرزاق ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكرونه على إنعامه **﴿وإن تُصِبْهُمْ سِيِّئَةٌ﴾** أي قحط وجدب وقلة من الثمرات **﴿يَطَّيَّروا[(١)] بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾** يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين قائلين: ما أصابنا بلاء إلاّ بوجودهم **﴿أَلا إنَّما طَائِرُهُم عِنْد اللَّهِ﴾** أي أن ما جاءهم من خير وما أصابهم من بلاء إنما هو من عند الله وتقديره، وليس الشر الذي أصابهم بسبب موسى وقومه **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمونَ﴾** ولكن أكثر هؤلاء لا يعلمون أن ما حل بهم من البلاء هو بسبب ذنوبهم لا بسبب موسى ومن معه من المؤمنين، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم يفيد بأن بعضهم يعلم ذلك.

---

(١) الأصل في إطلاق التطيّر على التشاؤم أن العرب كانوا إذا أرادوا سفراً أو فعل أي شيء زجروا الطير فإن اتجه يميناً تفاءلوا وأقدموا على ما أرادوا سفراً كان أم غيره وإن اتجه شمالاً تشاءموا وقعدوا، ثم كثر استعماله في معنى التشاؤم.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا به من آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ وقالوا مهما جئتنا من معجزة لتسحرنا بها وتصرفنا عن دين فرعون ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فلسنا لك بمصدّقين بأنك رسول من عند الله. وفي قولهم (مهما) ما يدل على استمرارية عنادهم وجحودهم وعدم اقتناعهم بأي شيء قدّمه لهم موسى من المعجزات.

﴿فَأَرْسَلْنَا علَيْهِمُ الطُّوفَانَ والجَرادَ والقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ﴾ فأرسل الله عليهم المطر الشديد واستمر ذلك حتى هدم بيوتهم وغمر أرضهم وزرعهم ومنع الناس من تدبير شؤون حياتهم، فقالوا: يا موسى ادع الله لنا لكشف ما نحن فيه من عناء فنحن سنؤمن بالله فدعا ربه فدفع الله عنهم هذا العناء فطغوا ورجعوا إلى كفرهم. فبعث الله عليهم الجراد فأكل ما أنبتت الأرض إلا القليل وضيّق عليهم غاية التضييق فقالوا لموسى: ادع لنا ربك لكشف الجراد ونحن نؤمن بالله فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فرجعوا إلى كفرهم.

فبعث الله عليهم القمّل وهو صغار القردان[1]، وقيل: هي البراغيث، وقيل هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وهناك قراءة (القَمْل) بفتح القاف وهو القمل المعروف. ثم إنهم قالوا: ادع يا موسى لنا ربك أن يكشف عنا هذا العذاب فكشف الله عنهم ذلك ولكنهم رجعوا إلى طغيانهم وكفرهم.

وبعث الله عليهم الضفادع فكانت تدخل في مضاجعهم وبين ثيابهم وآنيتهم، وإذا تكلم أحدهم وثبت إلى فيه، فقالوا: ادع لنا ربك يا موسى لكشف هذا الضرّ فكشف الله عنهم ذلك فرجعوا إلى كفرهم وطغيانهم.

فبعث الله عليهم الدم فتحول ماؤهم الذي يستسقونه دماً، وإن الرجل منهم كان يستسقي من البئر فإذا ارتفع إليه الدلو عاد الماء دماً، ولا يغترفون من إناء إلاّ عاد دماً،

---

(١) وهي دويبه معروفة تتعلق بالحيوانات.

وإنّ كل ما حصل لهم كان كما قال الله تعالى ﴿آياتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾ أي معجزات واضحات الدلالة على أنها عقوبات لهم على كفرهم وطغيانهم. وقيل معنى ﴿مُفَصَّلاتٍ﴾ مفرقات في الزمن، فقد كان العذاب يرتفع عنهم ثم يبقون مدة قيل شهراً أو ثمانية أيام، وعندما يعودون إلى كفرهم يَرِدُ العذاب الآخر، أي أن هذه الأنواع من العذاب لم تأت متصلاً بعضها ببعض ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وكَانُوا قَوْماً مُجْرِمينَ﴾ أي فاستكبروا عن الإيمان بالله وكانوا قوماً موغلين في الإجرام.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ ولمّا وقع على فرعون وقومه ذلك العذاب ﴿قَالُوا يا موسى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي قالوا عند نزول كل نوع من هذا العذاب: يا موسى ادع لنا ربك واسأله بحق ما عندك من عهد الله وتكريمه إياك بالنبوّة وما خصك من الدعاء المستجاب، وسميت النبوة عهداً لأن النبي عاهد ربه أن يقوم بأعبائها على أتم وجه ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بني إسْرَائيلَ﴾ أي نقسم لئن أزلت يا موسى عنا العذاب الذي نزل بنا لنُصَدِّقَنّ بنبوتك وبإلهك الواحد ونرسل معك بني إسرائيل إلى حيث تشاء.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إذَا هُمْ يَنكُثُون﴾ أي فلما كشف الله عنهم العذاب مرّة بعد مرَّة إلى وقت محدّد هم واصلون إليه وهو وقت إغراقهم في البحر، أو بمعنى: فلما كشف الله عنهم العذاب إلى وقت عينوه لإيمانهم، إذا هم يسارعون إلى نقض العهد الذي أكدوه بالقسم، ويعودون إلى طبيعتهم من الكفر والظلم.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُم في اليَمِّ﴾ أي فعاقبهم الله بسبب نقضهم العهد وإصرارهم على الكفر وارتكاب المعاصي، وكان هذا العقاب هو إغراقهم في البحر ﴿بِأَنَّهُم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلينَ﴾ وإغراقهم في البحر هو بسبب تكذيبهم بآيات الله، أي بمعجزاته وحججه عليهم وكانوا غافلين عنها لا يتدبرون العبرة منها ولا يتقون الله تعالى.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

شرح المفردات

مشارق الأرض ومغاربها: يراد بها أرض الشام ومصر.

وتمت: تحققت.

كلمة ربك: وعد ربك بالنصر.

الحسنى: تأنيث الأحسن.

يعرشون: يبنون قصوراً وعمارات.

وجاوزنا ببني إسرائيل البحر: قطعنا وعبرنا بهم البحر.

يعكفون على أصنام لهم: يقومون على عبادة تماثيل لهم.

متبّر ما هم فيه: مُهْلَك مدمَّر ما هم فيه من الدين الباطل وعبادة الأصنام.

أبغيكم إلّهاً: أطلب لكم إلّهاً معبوداً.

يسومونكم سوء العذاب: يذيقونكم أشد العذاب.

يستحيون نساءكم: يستبقون نساءكم أحياء للخدمة.

بلاء من ربكم: اختبار وابتلاء من ربكم.

فَضْلُ اللَّه على بني إسرائيل

وبعد أن أهلك الله فرعون وجنوده بإغراقهم في البحر، بيّن بعد ذلك فضله على بني إسرائيل وما خصّهم به من نعم فقال سبحانه:

﴿وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِين كَانوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ أي وبعد أن أغرق الله فرعون وجنوده في البحر أورث بني إسرائيل المستضعفين في الأرض الذين عذّبهم فرعون بتقتيل أبنائهم وتسخيرهم بالأعمال الشاقة **﴿مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾** أي نواحيها وجميع جهاتها، والمراد بمشارق الأرض الشام ومغاربها مصر، فإن بني إسرائيل ورثوا العمالقة في الشام وانتقل سلطانهم إليها، وورثوا الفراعنة بمصر **﴿التي بَارَكْنَا فِيهَا﴾** فقد بارك الله في أرض مصر وأرض الشام بالخصب وسعة الأرزاق وبارك الله في مصر بنهر النيل **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بني إسْرَائيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾** والحسنى: مؤنث الأحسن، وتمام كلمة ربك: هو إنجاز ما وعدهم الله من تمكينهم في الأرض وإهلاك عدوهم، وكان ذلك جزاء صبرهم على الشدائد التي كابدوها من ظلم فرعون وقومه **﴿وَدَمَّرنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾** ودمّر الله ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات **﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾** وما كانوا يبنونه من الأبنية والقصور وما يهتمون بغرسه في بساتينهم من الأشجار المثمرة والأعناب.

﴿وَجَاوَزْنا بِبَني إسْرَائيلَ البَحْرَ﴾ وَعَبَرَ بنو إسرائيل البحر بمعجزة من الله بعد أن انفلق وأصبحت فيه طُرُقٌ بضربة من عصا موسى بما أوحى الله إليه، والمراد بالبحر هنا البحر الأحمر من جهة خليج السويس، وكان العبور من الشاطىء الغربي حيث تقع مصر إلى الشاطىء الشرقي حيث توجد سيناء **﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُم﴾** فمر بنو إسرائيل على جماعة من الناس يقومون بعبادة أصنام لهم ويلتزمون بتعظيمها وتقديسها، وكانت هذه الأصنام بصور البقر **﴿قَالُوا يا مُوسَى

﴿ٱجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كما لَهُم آلِهَةٌ﴾ أي قال بنو إسرائيل لموسى حينما شاهدوا هؤلاء القوم: اصنع لنا صنماً نعبده، كما أن لهؤلاء القوم أصناماً يعبدونها ﴿قَالَ إِنَّكُم قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ قال لهم موسى متعجباً مما طلبوه: إنكم قوم تتصفون بالجهل وبالغباء الكامل، أتقولون ذلك بعدما شاهدتم من المعجزات التي تثبت ربوبية الله لهذا الكون واستحقاقه العبادة له وحده؟

وتابع موسى خطابه لهم ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إن هذا الدين الباطل الذي رأيتموه من عبادتهم للأصنام هو هالك مدمّر، فهم لا ينتفعون بعبادتها، وما يعملونه هو باطل لا بقاء له. فهذه الأصنام المصنوعة من حجر أو خشب أو نحاس لا تحمل معنى الألوهية في أي وجه، فهي مصنوعة بيد الإنسان فكيف يعبد الإنسان ما صنعت يداه؟

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكم إِلَهاً﴾ قال لهم موسى إنكاراً عليهم وتوبيخاً: كيف أطلب لكم غير الله إلَهاً تعبدونه، وقد شاهدتم من معجزات الله ما يكفي لتثبيت إيمانكم ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُم عَلَى العَالَمِينَ﴾ وهو سبحانه فضلكم على أهل زمانكم بما أنعم عليكم من هلاك عدوكم، واستخلفكم في الأرض بدلهم، وأخرجكم من الذلّ والاستعباد على يد فرعون، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غير الله؟

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَونَ يَسومُونَكُم سُوءَ العَذَابِ﴾ أي واذكروا فضل الله عليكم وقت أن أنقذكم الله من طغيان فرعون وقومه الذين كانوا يستعبدونكم ويكلفونكم القيام بأشقّ الأعمال ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُم وَيَسْتَحْيُون نِسَاءَكُم﴾ يذبّحون أبناءكم الذكور ويتركون الإناث أحياء لخدمتهم ﴿وَفي ذَلِكُم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُم عَظِيمٌ﴾ وفي هذا كله مصاب عظيم ومحنة جسيمة أنقذكم الله منها فاذكروا نعمة الله على ذلك واشكروه بعبادته وحده.

﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

شرح المفردات

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة: وعد الله موسى أن يكلمه عند انتهاء ثلاثين يوماً يصومها.

ميقات ربه: أي الوقت الذي حدده لمناجاته وتلقّي ألواح التوراة.

اخلفني في قومي: كن خليفتي في قومي وقائماً على أمرهم حتى أعود.

استقرّ مكانه: ثبت في مكانه وبقي على حاله.

فلما تجلّى ربه للجبل: بدا له شيء من نوره تعالى.

جعله دكاً: جعله مفتتاً منهاراً.

وخرّ موسى صعقاً: وسقط موسى على الأرض مغشياً عليه.

رؤية اللّه تعالى

ثم ينتقل بنا القرآن إلى بيان ما خصّ الله به رسوله موسى عليه السلام من تكليمه إياه وإنزال التوراة عليه:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وأتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ أي ووعد الله موسى بعد أن نجّاه وقومه من فرعون بإنزال كتاب يهتدي به بنو إسرائيل، ويبين لهم فيه الحلال والحرام ويكون ذلك بعد مضي ثلاثين ليلة يقضيها في التوجه إلى الله بالصيام والعبادة. فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقاً ورغبة في مناجاة الله وعبادته، زاده الله من هذا

الفضل عشر ليال، فتمّ الزمن الذي وقّته ربه وحدّده لحصول هذه النعمة أربعين ليلة، والثلاثون هي شهر ذي القعدة، والليالي العشر التي أتمها الله هي العشر من شهر ذي الحجة.

وروي أن الثلاثين ليلة التي صامها هي تهيئة له لمناجاة ربه، وأن مدة المناجاة هي الليالي العشر التالية لها والتي أُنزلت التوراة في خلالها.

والمراد بقوله تعالى: أربعين ليلة، الليالي مع نهاراتها، فاقتصر على ذكر الليالي لأن النهارات لا تكون إلا معها، هذا وإن النفس في الليل تكون أكثر صفاء للأحوال الروحية ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّه أربعين لَيْلَةً﴾ فتمّ الوقت الذي قدّره الله لصوم موسى وعبادته ونزول التوراة عليه أربعين ليلة، لأن الميقات هو الوقت الذي قُدّر فيه عمل ما. وقبل أن يتوجه موسى إلى جبل الطور أوصى أخاه هارون بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى لأَخيهِ هَارُونَ اْخْلُفْني في قَوْمِي﴾ أي كن خليفتي في قومي وراقبهم في أحوالهم، وكلمة (قومي) من موسى توحي بأنهم أعزّاء عليه وأنه لا يريد لهم إلا الخير الذي يريده لنفسه ﴿وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبيلَ المُفْسِدِينَ﴾ وأصلِحْهم بحملهم على طاعة الله ولا تسلك طريق المفسدين بالمشاركة في أعمالهم ومخالطتهم.

ومما يلفت النظر قول موسى لأخيه (وأصلح) فإن سياسة الأمة تدور حول الإصلاح وجميع تصرفات الأمة يجب أن تكون صالحة، وأن تعود الأعمال بالخير على الأمة.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِميقَاتِنَا﴾ ولما وصل موسى إلى الجبل في الوقت المعلوم الذي حدده الله له لمناجاته ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي خلق الله في موسى إدراكاً سمع به كلام ربه دون واسطة، وكلام الله لا يشبه شيئاً من كلام الخلق ولا يصدر من جهة من الجهات وهو مغاير للأحرف والأصوات التي يتفاهم بها البشر ﴿قَالَ ربِّ أَرني أَنْظُر إلَيْكَ﴾ قال موسى: يا رب أسألك أن تمكنني من النظر إليك، أو أن تتجلّى لي لأنظر إليك.

وسؤال موسى رؤية الله تعالى هو تطلّع إلى زيادة معرفة منه بالجلال الإلهي، ولِمَا هاج به الشوق بعد تكليم الله له فحمله ذلك على سؤال الله الرؤية. فقال الله رداً على طلبه: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي ولَكِنِ انظُرْ إلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ أي لن تراني يا موسى، ولكن انظر إلى الجبل فإنني سأتجلى له فإن بقي مستقراً وثابتاً في مكانه فسوف تراني. وإذا كان الجبل المؤلف من الصخر لا يثبت ولا يستقر لهذا التجلي من رب العالمين فكيف بالإنسان الضعيف أن يتحمل ذلك. وقد جاء هذا الاستدراك على عدم وقوع الرؤية لموسى في الدنيا لأنه لم يتهيأ لهذه الرؤية بالتكوين المناسب لها. أما رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم فهي حق وممكنة وهي أعلى وأكمل النعيم الروحاني الذي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة في الجنة كما يفهم من بعض آيات القرآن وكما جاء في الأحاديث الصحيحة عن رسول الله محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ للجبل جَعَلَهُ دَكّاً﴾ والتجلي إزالة الحجب بين الموجودات الأرضية وبين قوى الجبروت التي استأثر الله تعالى بها في هذا الكون. والمعنى: ولما ظهر الله للجبل على الوجه اللائق بجلاله جعله الله دكًّا، والدكّ هو الانسحاق والتفتت، فروي أنه ذهب الجبل برمته بعد أن تجلى الله له، كما روي أن الجبل تفتت وانسحق حتى صار في مساواة الأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ وسقط موسى على الأرض مغشياً عليه لهول ما رأى وشدة ما عانى.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمِنِينَ﴾ فلما أفاق موسى من غشيته وغيبوبته وعاد إليه وعيه قال تعظيماً لله: أنزهك يا رب عن مشابهتك لشيء من خلقك، وإني تبت من أن أسألك شيئاً بغير إذن منك وأنا أول المؤمنين بكبريائك وعظمتك من هذه الأمة.

هذه هي الذات الإلهية التي ذكرها القرآن المتصفة بالعظمة والجلال، وهي الجديرة بالتوقير والتعظيم، والخشوع عند سماعها وذكرها، فأين من ذلك ما وصفت

التوراة الذات الإلهية بالضعف، فقد صارع الله يعقوب في زعمهم إلى الفجر ولم يغلبه!

وأين منا الآن حيث نرى اسم الله يحشر في كلمات الأغاني التي يغنى بها في صالات اللهو والفجور على مسمع من روادها الذين يحتسون الخمور ويرقصون على أنغام تلك الأغاني؟



﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

شرح المفردات

اصطفيتك على الناس: اخترتك وفضلتك عليهم.

الألواح: وهي التي كتبت فيها التوراة.

فخذها بقوة: فتناولْها بجدّ وعزيمة.

سأصرف عن آياتي: سأمنع وأبعد عن فهم آياتي والإيمان بها والانتفاع بما جاء فيها.

سبيل الرشد: طريق الهدى.

سبيل الغيّ: طريق الضلال.

حبطت أعمالهم: بطل ثواب أعمالهم.

اصطفاء اللّه لموسى عليه السلام

وبعد أن أعلن موسى توبته من طلبه رؤية الله وأقرّ بأنه أول المؤمنين بعظمته خاطبه الله بقوله: ﴿**قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي**﴾ أي فضلتك وخصصتك على جميع الناس المعاصرين لك باختيارك رسولاً من عندي إلى قومك، وآثرتك بإنزال التوراة عليك، كما آثرتك بكلامي إياك من غير واسطة ﴿**فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ فتقبّل ما أنعمت به عليك من شرف الرسالة الإلّهية، وارضَ بنعمة مناجاتك إياي وكن في عداد الشاكرين فإنّ ما أنعمتُ به عليك من أجلّ النعم.

﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾ فالله سبحانه يقول: وبيّنّا لموسى في التوراة التي أنزلناها عليه والمكتوبة في الألواح كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل من أمور دينهم، وفيها المواعظ وتفصيل الأحكام وبيان الحلال والحرام، أما عدد الألواح التي كتبت عليها التوراة ونوعها فلم يذكرها لنا القرآن فالأصحّ عدم الخوض في ذلك كما ذهب بعض المفسرين.

ويلاحظ أن التوراة الأصلية فُقدت في الغزو البابلي، أما التوراة الحاضرة فقد شابها التحريف والتبديل كما صرّح بذلك القرآن.

ثم يخاطب الله موسى بقوله: ﴿**فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا**﴾ أي قم بأداء ما في هذه الألواح من الأوامر، وامتنع عما فيها من النواهي بجدّ وإخلاص وعزيمة وأمر قومك باختيار الأحسن منها، أي ما أجره وثوابه أكثر من سواه، مع العلم أنها كلها حسن ﴿**سأُورِيكُمْ دَارَ الفَاسِقِينَ**﴾ هنا تهديد ووعيد لمن يخالف أوامر الله، أي سأريكم في الآخرة ما يؤول إليه حال الفاسقين الذين خرجوا عن طاعتنا، أو بمعنى: سأريكم دار فرعون وقومه كيف أقفرت مساكنهم بعد هلاكهم.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِين يتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ**

بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ أي سأمنع المتكبرين عن طاعتي عن فهم الحجج والأدلّه المنصوبة في الكون الدالة على عظمتي فلا يعتبرون بها، وأمنعهم من الاستفادة من الأحكام والشرائع المنزلة على رسلي فلا ينتفعون بها. والآيات هنا هي جملة كل كتاب منزل من عند الله على رسول من رسله، كما تُطلق الآيات على المعجزات التي أيَّد الله بها رسله. وأيضاً سُمّي خلق الكون آية لأنه علامة على وجود الله سبحانه وقدرته وحكمته. أما التكبُّر فهو احتقار الناس والاستعلاء عليهم وعدم الرضوخ للحق.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي إن يسمعوا كل آية من آيات الكتب الإلهية أو يبصروا معجزة من المعجزات على يد رسل الله التي تشهد بربوبية الله ووحدانيته لا يصدّقوا بها **﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوه سَبيلاً﴾** وإن يشاهدوا طريق الهدى والسداد لا يسلكوه ولا يتخذوه طريقاً لهم **﴿وإنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾** وإن يعلموا طريق الضلال والفساد يختاروه لأنفسهم مسلكاً مستمراً **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهم كَذَّبُوا بآياتِنَا وكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾** أي ذلك التكبر وعدم الإيمان واتباع طريق الضلال هو بسبب تكذيبهم بآيات الله الدالة على وحدانيته وربوبيته للكون، وبسبب غفلتهم عن التفكر بآيات الله والاتعاظ بها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُم﴾ والذين لم يصدّقوا بآيات الله الداعية إلى الإيمان وفضائل الأعمال وكذّبوا بها، وأنكروا لقاء الله في الآخرة ووقوع الجزاء فيها على أعمالهم، هؤلاء بطلت أعمالهم التي كانوا يرجون ثوابها، إذ إن شرط قبول أعمال الخير ونيل الثواب عليها من الله هو تحقيق الإيمان بالله وإخلاص العمل له **﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أي لا يلقون في الآخرة إلا الجزاء السَّيِّىء والعقاب من ربهم على ما فعلوه في دنياهم.

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

شرح المفردات

له خوار: له صوت كصوت البقر.

اتخذوه: أي اتخذوا العجل إلّهاً وعبدوه.

ولا يهديهم سبيلاً: ولا يرشدهم إلى طريق الخير والصواب.

سُقِط في أيديهم: ندموا أشدّ الندم على ما فعلوا.

أسِفاً: حزيناً شديد الغضب.

بئس ما خلفتموني من بعدي: ما أقبح ما فعلتم بعد فراقي إياكم.

فلا تُشمت بي الأعداء: فلا تسرّهم بما تنال مني من مكروه.

المفترين: الذين يختلقون الكذب على الله.

سكت عن موسى الغضب: هدأ عن موسى الغضب.

لربهم يرهبون: يخافون ربهم أشدّ الخوف.

بنو إسرائيل وعبادة العجل

كانت آثار الوثنية مُتأصِّلة في قلوب بني إسرائيل بسبب معاشرتهم الطويلة للمصريين. ومن مظاهر الوثنية عبادة العجل، فقد تخيّل المصريون قديماً الآلهة في أشكالِ حيواناتٍ، ونخصّ بالذكر منها اثنين كانوا يعبدونهما منذ أقدم الأزمان وظلوا كذلك إلى آخر عهدهم ونعني بذلك العجل «منفيس» المقدس إلّه هليوبوليس، والعجل «أبيس» معبود منف، بالإضافة إلى ما كان يعبد المصريون من الآلهة: كإلّه الشمس، وإلّه الماء وإلّه القمر وإلّه السماء وإلّه الأرض وغير ذلك من الآلهة.

وقد استغل ظاهرة عبادة العجل رجل ماكر من بني إسرائيل سمّاه القرآن «السامريّ» فصاغ لهم تمثالاً من ذهب بصورة عِجْلٍ وقال لهم: هذا إلّهكم وإلّه موسى.

وبيان ذلك: أن موسى عليه السلام أخبر بني إسرائيل قبل ذهابه إلى جبل الطور لمناجاة ربّه وتلقي التّوراة بأن غيبته عنهم لن تطول أكثر من ثلاثين ليلة، ثم أتمَّ اللَّهُ هذه الليالي الثلاثين بعشر ليالٍ أُخرى. ولما طالت غيبة موسى عن قومه اسْتبطأوه وقالوا: إن موسى أخْلَفَنا وعده، فقال لهم السامريُّ: إنَّ موسى لن يرجع وإنه قد مات، فاغتنمها فرصة وأخذ من بني إسرائيل بعض حُلِيِّهم من الذهب التي كانوا قد استعاروها من القبط ـ سكان مصر ـ قبل خروجهم منها، وسبك من تلك الحُلِيِّ عِجْلاً وصاغه بطريقة خاصة بحيث إذا دخلت الريح من خلفه أخْرَجَ صوتاً من فمه كصوت خوار البقر. ثم دعاهم السامريُّ إلى عبادة هذا العِجْل فأطاعوه. وبعد هذه المقدمة نستعرض الآيات التي ذكرت هذا الموضوع. قال الله تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ من حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ أي

وبعد أن ذهب موسى عليه السلام إلى الجبل لمناجاة ربّه اتَّخذ قومه من حليهم المُخَصَّصة للزينة جسماً على صورة العجل له صوت يشبه صوت خوار البقر ليكون معبودهم. والذي صنع هذا العجل هو (السامري) ونسبت الآية الفعل إلى قوم موسى لأن ذلك كان برضاهم وموافقتهم ولأنهم أطاعوا السامريّ في جعله إلّهاً معبوداً ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّه لا يُكَلِّمُهُمْ ولا يَهْدِيهِم سَبيلاً﴾ والاستفهام في الآية إنكاريّ لما قاموا به من عبادة صنم العجل، الذي ليس فيه شيء من صفات الألوهِية، فهو لا يكلمهم ولا يهديهم إلى سبيل الخير ﴿اتَّخَذوهُ وَكَانُوا ظَالِمينَ﴾ أي اتخذوه إلّهاً معبوداً وكانوا بعملهم الشنيع هذا ظالمين لأنفسهم حيث أوردوها مورد الهلاك.

﴿ولمَّا سُقِطَ في أيدِيهِمْ﴾ أي ولمّا ندم الذين عبدوا العجل عند رجوع موسى إليهم أشدّ الندم واستسلموا لحكمه فيهم، والتعبير عن الندم بلفظ (سقط في أيديهم) هو تعبير بلاغي رائع لم يُسمع به قبل نُزول القُرآن، فالسقوط هو الوقوع من أعلى إلى أسفل، ومن شأن من اشتد ندمه أن يعضّ يده من شدة الغمّ والندم فهو بهذا يسقط فمه على يديه، كما أن ذِكْر اليد في السُّقوط لأن الندم يَحدث في القلب ثم يَظْهَر أثره على اليد، ولهذا وصف الله من نَدِمَ على ما فَعَلَ بقوله: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. وبعد أن ندم الذين عبدوا العجل على فعلهم هذا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهم قَدْ ضَلُّوا﴾ وعلموا أنهم قد جاوزوا الصواب وخرجوا عن طريق الهدى، قالوا مُتَحَسِّرين: ﴿قالوا لِئن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرينَ﴾ أي والله لئن لم يعف الله عنا برحمته وإحسانه، ويَتَقَبَّل توبتنا فَيُكَفِّر عنا سيئاتنا لنكونن من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم لتوجههم إلى عبادة غير الله سبحانه.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ أي ولما رجع موسى من الجبل الذي ناجى فيه ربّه، وهو شديد الغضب حزينٌ على ما اقترفه قومه في غيبته من عبادة

العجل، وكان الله قد أخبره وهو في الجبل بضلال قومه ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي قال موسى للمرتدّين من قومه: ما أقْبَحَ ما فعلتم بعد فراقي إياكم، كما أن خطابه يشمل المؤمنين حيث لم يمنعوا عَبَدَة العجل عمّا فعلوه، فيكون المعنى: أي بئس قيامكم مقامي إذ لم تراعوا عهدي، لأن الواجب على الخلفاء أن يسيروا على نهج من استخلفهم على أمْرٍ ما. ثم خاطب موسى عَبَدَةَ العِجْلِ بقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربّكم من انتظاري وحفظ عهدي حتى أرجع إليكم وآتيكم بالتوراة ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخيه يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ ووضع موسى الألواح التي كتبت عليها وصايا الله وشريعته جانباً ليأخذ بشعر رأس أخيه، وراح يجره إليه من شدّة غضبه لظنه أنَّ أخاه هارون قد قصّر في نصح قومه ولم يمنعهم من عبادة العجل، فقال هارون لموسى وهو في تلك الحالة: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادوا يَقْتُلونَنِي﴾ قال: يا ابن أُمَّ مع كونهما شقيقين ليثير الحنان والشفقة في قلب موسى لأن الأُمّ مصدر الحنان والعطف والرحمة، وأضاف قائلاً: إنَّ القوم استضعفوني وأذلُّوني وأوشكوا على قتلي، وفي قوله هذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض المقاوم لهم. وتابع هارون قوله: ﴿فَلا تُشْمِت بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ أي فلا تفعل يا موسى أمام هؤلاء الأعداء ما يكون سبب شماتتهم بي، والشماتة هي إظهار الفرح بمصيبة تقع على الخصم ﴿ولا تَجْعَلْني مَعَ القَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ ولا تجعلني يا أخي في عداد الظالمين الذين عبدوا العجل مع براءتي منهم ومن ظُلْمِهِم.

ثم دعا موسى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لي وَلأخِي﴾ أي رَبِّ اغْفِرْ لي ما بدر مني من غلظة على أخي قبل الاطلاع على حقيقة الأمر، واْغْفِر لأخي إن كان قد قصّر في الإنكار على الذين عبدوا العجل ﴿وَأَدْخِلْنَا في رَحْمتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحمينَ﴾ وأدْخِلنا يا ربّ في رحمتك التي وسعت كل شيء لأنك أكثر الراحمين رحمة.

وما ورد في القرآن تصحيح لما ورد في التوراة الحالية من أن هارون هو الذي

صَنَعَ العِجْلَ لبني إسرائيل ليعبدوه في غياب موسى عنهم، فهارون هو نبيّ من أنبياء الله وحاشا للأنبياء أنْ ينزلقوا إلى هذا الكفر الفادح، وما جاء في التوراة في هذا الصدد هو من افتراءات اليهود وتحريفهم لكتاب الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي إن الذين جعلوا من العِجْلِ إلّهاً وعبدوه من دون الله كالسامري ومن اتَّبَعَهُ من بني إسرائيل **﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** سينالهم غضب من خالقهم في الدار الآخرة وسيصيبهم في الحياة الدنيا الذُّلُّ والهوان **﴿وَكَذَلِكَ نَجزِي المُفْتَرِينَ﴾** وبمثل هذا العقاب الشديد يُعاقبُ اللَّهُ كل من اختلق الكذب على الله وعبد سواه.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ أي والذين اقترفوا الكُفْرَ وسائر المعاصي ثم رجعوا إلى الله بالتوبة والطاعة وأقلعوا عن سيئاتهم وآمنوا بالله ورسوله **﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** إن ربك من بعد توبتهم من كفرهم وذنوبهم قد ضمن المغفرة والرحمة لهم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ﴾ أي ولمّا زال الغضب عن موسى. وهنا استعارة تُظهر بلاغة القرآن، فالمستعار هو السكوت وحقيقة السكوت زوال الكلام، ولكن هل للغضب سكوت؟ نعم لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً تُنَفِّسُ فيه عن مشاعرها أمام من استفزها. فالآية تمثل الغضب في صورة شخص يدفع موسى عليه السلام على الانْفعال ويقول له: قل لقومك كذا، وألْقِ الألواح، وجرّ رأس أخيك، وهذا ما فعله، ثم ترك الغضب كلامه وسكت عن دفع موسى وتحريضه عندئذٍ **﴿أَخَذَ الأَلْوَاحَ وفي نُسْخَتِها هُدًى﴾** أي ولمّا سكن الغضب عن موسى أخذ الألواح التي كان قد ألقاها على الأرض جانباً، وفي ما كتب في هذه الألواح هداية إلى الخير والإيمان وهداية من الضلالة **﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِين هُمْ لِرَبِّهِم يَرْهَبُونَ﴾** كما أن في هذه الألواح أسباب رحمة للذين يخافون ربّهم ويخشون عقابه.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾

شرح المفردات

لميقاتنا: الميقات المكان الذي حدَّده الله ليذهب موسى وقومه إليه.

أخذتهم الرجفة: أصابتهم الزلزلة الشديدة.

السُّفهاء: يستعمل السَّفَه للطيش والحمق ونقصان العقل.

فِتْنَتُكَ: ابتلاؤكَ.

حسنة: حياة طيبة وتوفيقاً في طاعتك.

هُدْنا إليك: تُبْنا إليك من المعاصي ورجعنا إليك بالطاعة.

طلب الغفران من الله لما فعله السفهاء

وبعد أن سَكَنَ غضب موسى لـمّا رأى من قومه ما رأى يذكر لنا القرآن ما جرى بعد ذلك من أحداث، وقبل أن نستعرض الآيـات في هذا الصَّدد نذكر ما روي في ذلك:

أمر الله موسى أن يأتيه بجماعة من قومه ممن لم يعبدوا العجل يعتذرون عمن تركوهم وراءهم من عَـبَـدَةِ العجل، وعيّن لهم موعداً؛ فاختار موسى منهم سبعين

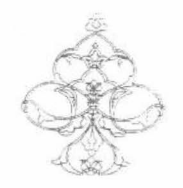
رجلاً وذهب بهم إلى جبل الطور، وسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء ويتوب على من عَبَدَ العِجْلَ، فأخذتهم في ذلك المكان الرجفة وهي الزلزلة الشديدة فَغُشِيَ عليهم منها لأنهم لم ينهوا قومهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف ثم أفاقوا منها، وكانت الرجفة لتأديبهم على تقصيرهم.

ورُوِيَ أن الوفد الذي كان مع موسى لمّا أتوا إلى ذلك المكان الذي حدّده الله لهم قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلّمته فأرِنا إيّاه، فأخذتهم الصاعقة فماتوا ثم أحياهم الله بعد مماتهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِميقَاتِنَا﴾ في الكلام هنا حذف حرف الجر (من). والمعنى: واختار موسى من قومه سبعين رجلاً من فضلاء قومه الذين ظلوا على إيمانهم فَقَدِمَ بهم إلى المكان والزمان اللذين حدّدهما الله لهم ليعتذروا عن الذين عَبَدُوا العِجْلَ من قومهم وسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فلما أصابتهم الزلزلة الشديدة التي نشأ عنها الإغماء أو الموت ﴿قَالَ رَبِّ لَو شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ أي فلما رأى موسى ما حلَّ بالوفد قال: يا ربّ، لو شئت إهلاكهم لأهلكتهم قبل خروجهم إلى الميقات وأهْلكتني معهم، ولكن هلاكهم اليوم فيه اتهام لي بقتلهم، فقد يظن أهلهم أنني أحضرتهم إلى هنا ليموتوا ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ الاستفهام هنا للاستعطاف، ووصف الذين عبدوا العجل بالسّفه وهو خِفَّةُ العقل والطيش حيث عبدوا عجلاً من صنع اليد لا يكلمهم ولا ينفعهم. والمعنى: أتُهْلِكنا بذنوبِ من عبد العجل ونحن من ذلك براء، ثم أحياهم الله بعد مماتهم. وتابع موسى قوله: ﴿إنْ هِيَ إلاّ فِتنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدي مَنْ تَشَاءُ﴾ أي ما كانت عبادتهم للعجل إلاّ ابتلاءً واختباراً منك ابتليتهم بها ليتبيَّن الذي يضل عن الحق بعبادته للعجل والذي يهتدي بترك عبادته.

﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِر لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرينَ﴾أي أنت القائم بأُمُورنا في الدنيا والآخرة فتجاوز عن سيئاتنا وتفضّل علينا بإحسانك وآثار رحمتك التي وسعت كل شيء وأنت أكرم من يتجاوز عن السيئات.

وتابع موسى دُعاءه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا في هذه الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ﴾ واجعل لنا بفضلك في هذه الحياة الدنيا عيشة حسنة طيبة، وتوفيقاً إلى طاعتك، وهب لنا في الآخرة مغفرةً لِذُنُوبنا، والنعيم الدائم في جناتك الواسعة ﴿إنَّا هُدْنَا إلَيْكَ﴾ إننا تُبْنا إليك ﴿قَالَ عَذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أي قال الله جواباً على ما طلبه موسى: إن شأن عذابي أني أُصيب به من أشاء ممن يخرج عن طاعتي، وليس لأِحَدٍ عليّ اعتراض ﴿وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شيء﴾ وإحساني شمل جميع خلقي. أما في الآخرة فإن رحمتي وجبت للمؤمنين خاصة ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذينَ يَتَّقُونَ﴾ أي فسأجعل رحمتي في الآخرة للذين يخافونني ويجتنبون الكفر والشرك والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي ويؤدّون زكاة أموالهم لمستحقيها من الفقراء وغيرهم ﴿وَالَّذِين هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ والذين يصدّقون بجميع الكتب التشريعية المنزلة من عندي وبالأخص آيات القرآن الكريم.



﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

شرح المفردات

الرسول: هو الذي يُوحى إليه من عند الله ويأمره الله بتبليغ وحيه.

النبي: هو الذي يُوحي الله إليه بعلم لم يحصله بكسب ويعلم أنه من عند الله وهو يتبع الرسول الذي قبله.

الأُمّي: الذي لا يقرأ ولا يكتب.

يجدونه مكتوباً عندهم: يجدون صفته ونعته في كتبهم الدينية.

الطيبات: ما تستسيغه الأذواق من الطعام الحلال مما كان محرماً على بني إسرائيل.

الخبائث: ما تنفر منه النفس وتَـضَـرّ به الأجسام.

إصْرهم: التكاليف الشاقّة التي فُرضت على اليهود بسبب ظلمهم.

الأغْلال: الأحكام الثقيلة التي كانت في شرائع بني إسرائيل.

عَزَّرُوهُ: وقَّروه وعَظَّموه وأعانوه.

نبوة محمد مكتوبة في التوراة والإنجيل

وبعد أن بيّن القرآن أن رحمة الله سينالها الذين يَتَّقُونَه ويؤمنون بآياته ويؤتون الزكاة، بَيَّنَ في الآيات التالية أن رحمة الله سينالها أيضاً الذين يتبعون النبي محمداً ﷺ فيما جاء به من عند ربه، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ والرسول النبي الأمي هو محمد ﷺ. والأُمِّي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب. ووصف محمد بالأُميّة هو من الآيات الباهرة التي تشهد أنه رسول الله حقاً، فكون محمد أُميًّا ثم يأتي بهذا القرآن المشتمل على الشرائع والأخلاق والعقائد والعبادات وقصص الأنبياء والعِبَر منها مما هو أعظم آية على أنه رسول الله حقاً أوحى اللَّهُ إليه هذا القرآن.

فهذه العلوم التي يشتمل عليها القرآن لا يصدر بعضها إلا عمّن كان على قدر كبير من الذكاء وتتلمذ على أيدي كبار علماء اللاهوت في عصره، وأتْقن عدة لغات وقرأ مئات الكتب في هذا الشأن، أما أنْ يَصدر هذا القرآن من رجل أُمِّيٍّ لم يُزاول الكتابة والقراءة ولم يتتلمذ على أَحَدٍ من العلماء لأنه لم يكن في ذلك العصر في مكة علماء ولا جامعات، ولم يغادر محمد مكة ليقتبس علم الأديان من الأحبار والرُّهْبان، فإن كل ذلك يثبت نبوته ويؤكدها.

وبجانب القرآن هناك الأحاديث النبوية التي كان ينطق بها محمد ﷺ في كل المناسبات سواء في بيانِ ما أنزل إليه من القرآن، أو في وَعْظِهِ للناس عندما يرى منهم شَطَطاً، أو إرشادهم إلى ما يُقرّبهم إلى الله، وهذه الأحاديث الشريفة المدونة في الكتب تشهد بأنه رسول من عند الله، لما فيها من بلاغة وحكمة وإرشاد بزّت حكمة الحكماء وبلاغة البلغاء.

وهؤلاء الذين يتبعون النبي الأُمِّيّ ﴿الَّذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُم في التَّوْراةِ والإِنجيلِ﴾ أي يجد اليهود والنصارى وَصْفَ النبي محمد ﷺ باسمه ونعته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل التي كتمها أهل الكتاب أو تعمّدوا تأويلها بما يحقق

رغباتهم، وسنذكر فيما بعد بعض ما ورد في التوراة والإنجيل من المبشّرات بمجيء نبيّ تنطبق صفاته على محمد ﷺ بعد الانتهاء من تفسير هذه السورة ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ومن صفات النبي محمد ﷺ أنه يأمر اليهود والنصارى بالإيمان بوحدانية الله وطاعته ويدعوهم إلى مكارم الأخلاق وكل ما تستحسنه الطبائع السليمة من الأفعال، كما ينهاهم عن كل فعل تُنْكِرُهُ الطبائع السليمة من الأفعال السيئة كالفواحش والمنكرات والشرك بالله ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي يُحِلُّ لهم ما تستطيبه الأذْواق من الأطعمة التي فيها فائدة في التغذية ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ ويحرّم عليهم تناول كل خبيث وضارّ كالدم والميتة ولحم الخنزير والخمور، كما يُحَرِّمُ عليهم الرِّبا وما يُؤْخَذُ من الأموال بغير حق ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي يُخفف عنهم ما ثقل عليهم من التكاليف الشاقة في العبادات والمعاملات ﴿وَالأَغْلالَ التي كَانت عَلَيْهِمْ﴾ والأغلالُ: جمع غُلّ وهو القيد يقيّد به فيجعل الأعضاء في وسطه، وهنا استعارة لما كان في شرائعهم من التكاليف الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثوب وإحراق الغنائم، وتحريم العمل يوم السبت، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعيّن القصاص في القتل العمد والخطأ من غير شرع الدية ﴿فَالَّذِين آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ فالذين آمنوا بنبوة محمد ﷺ واتبعوه فيما جاء به من الشرائع من عند ربه وعظّموه وَوَقَّرُوهُ، ونَصَرُوا دينه بجهادهم معه أعداء الله ﴿واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ والنور هنا هو القرآن، وسمي القرآن نوراً لكونه ظاهراً واضحاً في آياته يَهدِي من اتبعه إلى العقيدة السليمة والعمل الصالح كما يهدي النور الحسي في الليلة الظلماء من يسعى إلى مبتغاه ﴿أُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ أي أُولئك الذين آمنوا بنبوة محمد ونصروه واتبعوا ما أُنزل عليه من القرآن هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم جَميعاً﴾ أي قل يا محمد للناس

جميعاً إني رسول الله إليكم كافةً. وفي القرآن آيات أُخرى تثبت بأن الله أرسل محمداً للناس جميعاً لا للعرب خاصة خلافاً للأنبياء والرسل قبله، فقد كانت دعوتهم إلى أقوامهم خاصةً لا إلى الناس جميعاً.

وقد جاء في القرآن ما يؤكّد عموم رسالة محمد إلى البشر كافة مثل قوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

ويقول النبي محمد ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرة شهرٍ، وجُعِلَت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحلّ لأَحَدٍ قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامةً»[(١)].

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّموات وَالأَرْضِ لا إلَه إلاَّ هُوَ﴾ وقل يا محمد إن الله الذي أَرْسَلني إلى الناس كافةً، له ملك السماوات والأرض وما استقرَّ فيها، وله التصرّف والتدبير في كل ذلك، وهو واحدٌ لا شريك له، ولو كان لغيره تصرّف مع تصرّف الله لفسد نظام الكون، فوحدة النظام في الكون دليل على وحدة الألوهية ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وهو الذي يقدر على الإحياء والإماتة دون غيره ويبعث الناس أحياء بعد مماتهم يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم ﴿فَآمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾ فآمنوا أيها الناس جميعاً بوحدانية الله وآمنوا برسوله محمد النبي الأُمِّيّ الذي بشّر به الأنبياء من قبل ﴿الَّذي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ وهذا النبي محمد يصدّق بما يدعوكم إليه من وحدانية الله وكلماته التشريعية التي أنزلها الله على رسله من قبل، وما أنزل الله عليه من القرآن ﴿واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكم تَهتَدُونَ﴾ واتبعوا محمداً بكل ما

(١) رواه البخاري.

جاءكم به من الدِّين من عند الله واقتدوا به لكي تهتدوا وتصيبوا الحق والصواب في اتّباعكم إياه.

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

شرح المفردات

أمّة: جماعة.

يهدون بالحق: يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويرشدون إليه.

وبه يعدلون: وبالحق يعطون ويأخذون فلا يجورون.

وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً: أي صيَّرهم اللّهُ اثنتي عشرة قبيلة، والسِّبْطُ: ولد الولد أو الولد.

فانبجست: فانفجرت.

وظلّلنا عليهم الغمام: وسخّر الله لهم السحب تظلّهم من حرارة الشمس.

المَنَّ والسَّلْوى: المَنُّ مادة مائعة لزجة تنزل من الجو كما ينزل الطلّ طعمها حلو تنزل على الحجر وورق الشجر، والسلوى: طائر السماني.

وقولوا حِطَّةٌ: أي حُطّ عنا ذنوبنا يا رب بغفرانك لها.
رِجْزاً: عذاباً.

فَضْلُ اللَّهِ على بني إسرائيل

ويتابع القرآن فيذكر أن بني إسرائيل ليسوا كلهم سواء في تمردهم على طاعة الله وعصيانهم أمره، بل إن منهم فئة صالحة:

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي ومن قوم موسى جماعة يهتدون بالحق ويعملون به ويرشدون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحق يُنصفون الناس ويحكمون بينهم بالعدل.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾ أي فرّق الله بني إسرائيل وصيّرهم اثنتي عشرة أمة لتتميز كل أُمة عن الأخرى، ويُقال لكل واحد سِبْط، والأسْباطُ في بني إسرائيل كالقبائل عند العرب، والسِّبْطُ وَلَدُ الوَلَدِ أي الحفيد أو الولد. وكان بنو إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر وَلَداً هم أولاد يعقوب الذي يطلق عليه أيضاً اسم إسرائيل.

ثم ينتقل بنا القرآن إلى الكلام على بني إسرائيل حين كانوا في صحراء سيناء بين مِصْرَ وفلسطين، والسبب في وجودهم هناك كما جاء في سورة المائدة: أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل بالدخول إلى الأرض المقدسة فلسطين للإقامة فيها بناء على وعْدٍ من الله لهم، فأبوا ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢] كما قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] أمام هذا اللؤم والجبن المستحكم في بني إسرائيل دعا موسى ربه أن يفصل بينه وبين هؤلاء القوم الفاسقين، فاستجاب له ربّه وأخبره بأن الأرض المقدّسة محرمة عليهم وأنهم سيتيهون في الصحراء أربعين سنةً، والآيات التالية تذكر

فَضْلَ الله عليهم وهم في الصحراء حين استبدَّ بهم العطش:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ أي وأوحى اللهُ إلى موسى حين طلب منه قومه الماء لِيَرْووا عطشهم ﴿أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ أمر الله موسى بأن يضرب الحجر بعصاه التي في يده فضربه بقدرة الله تعالى ومعجزة منه فانفجرت منه اثنتا عشرة عَيْناً بعدد أسباط بني إسرائيل. أما نوع هذا الحجر أو الصخر وحجمه فلم يذكره لنا القرآن ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُم﴾ أي قد عرف كل أُناسٍ من الأسْباط الاثنتي عشرة العين الخاصة بشربهم لا يدخل سِبْط على غيره في شربه.

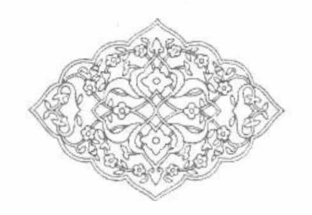
ولما كانت الصحراء بِحَرِّها الشديد تفتقر إلى الشجر والظلال لتقيهم حرّ الشمس كان من فضل الله عليهم ما ذكره سبحانه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغَمَامَ﴾ أي وسَخَّرَ اللَّهُ لهم السحاب يلقي ظلاله عليهم حيث بسطه الله فوقهم في إقامتهم وسيرهم.

وكان الحصول على الطعام في الصحراء شغلهم الشاغل فيسّره الله لهم إذ قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيهِمُ المَنَّ والسَّلْوَى﴾ أما المنّ فهو مادة بيضاء تنزل على ورق الشجر وغيره كالندى، حلوة الطعم، مذاقها حلو كالعسل، والسَّلْوَى: الطائر المعروف بالسمانى ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي قال الله لهم على لسان موسى: كلوا من مستلذّات ما رزقناكم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام هنا حذف تقديره: فكرهوا وملّوا منه وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، وما ظلموا الله بكفرهم بهذه النعم ولكن كان ظلمهم مختصاً بهم، مقصوراً عليهم لا يجاوزهم إلى غيرهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ القَرْيَةَ﴾ واذكر يا محمد لقومك وللمعاصرين لك من اليهود حين قال الله لأسلاف بني إسرائيل على لسان موسى: اسكنوا هذه القرية

ـ أي بيت المقدس أو أريحا ـ بعد الخروج من صحراء التّيه، وانتهاء مدة عقوبتهم فيها ﴿وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُم﴾ وكلوا مِنْ خيراتها من أي ناحية من نواحيها شئتم ﴿وقُولوا حِطَّةٌ﴾ وقولوا نسألك يا رب أن تَحطَّ عنا خطايانا بغفرانك لنا ﴿وادْخُلوا البَاب سُجَّداً﴾ وادخلوا باب القرية خاضعين خاشعين لله مع انحناء الرؤوس تواضعاً لله وشكراً على تمكينكم من دخولها ﴿نَغْفِر لَكُم خَطِيئَاتِكُمْ، سَنَزِيدُ المحْسِنِينَ﴾ أي إن فعلتم ذلك يغفر الله ما سبق من خطيّاتكم، وسيزيد ثواب الذين أحسنوا الأعمال بالإضافة إلى غفران ذنوبهم.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِين ظَلَمُوا مِنْهُم قَولاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُم﴾ أي فغيّر الذين كفروا من بني إسرائيل قولاً غير الذي قيل لهم فوضعوا مكان ذلك قولاً آخر تكبّراً واستهزاء. أما حقيقة العبارات التي قالوها وذكرها بعض المفسرين فلم يرد بها نص فالأصح عدم تعيينها ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي بعث الله عليهم عذاباً من السماء أهْلك الكثير منهم قيل: هو الطاعون، وكان ذلك بسبب ظلمهم وما كانوا يغيّرون من أوامر الله.



﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

شرح المفردات

القرية: المراد بالقرية أهلها، وهي قرية أيْلة.

حاضرة البحر: قريبة ومجاورة للبحر الأحمر.

يَعْدُونَ يوم السبت: يعتدون ويتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت وقد نُهوا عنه.

حيتانُهم: جمع حوت، وهو السمكة كبيرة كانت أم صغيرة.

شُرَّعاً: ظاهرة على وجه الماء.

ويوم لا يَسْبِتُونَ: وغير يوم السبت الذي أمروا بتعظيمه.

نَبْلُوهُم: نختبرهم ونمتحنهم.

أُمَّـةٌ منهم: جماعة منهم.

قالوا معذرة إلى ربكم: أي نعظهم لأجل الاعتذار إلى الله عن السكوت عن المنكر.

بعذابٍ بئيسٍ: بعذابٍ شديدٍ.

عَتَوا عن ما نُهوا عنه: تكبّروا عن ترك ما نهوا عنه.

خاسئين: أذلاّء صاغرين.

تأذَّنَ: آذن، أي أعلم.

من يسومهم: من يذيقهم.

عصيان اليهود ما نهاهم عنه ربّهم

ويُتابع القرآن أخْبار اليهود فيذكر كيف كانوا يعصون أمر ربّهم ولا يلتزمون طاعته:

قال الله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البَحْرِ﴾ أي وٱسأل يا محمد بني إسرائيل سؤال تقريع وتوبيخ عمّا فعل أسلافهم في قرية أيْلة الكائنة قرب البحر الأحمر ﴿إذْ يَعْدُون في السَّبْتِ﴾ يعدون: يعتدون، أي حين يعتدون ويتجاوزون حدود الله بالصيد في يوم السبت المحرّم عليهم الصيد فيه، بينما أمرهم الله بالتفرغ في هذا اليوم للعبادة ﴿إذْ تَأْتِيهِم حِيتَانُهُم يَوْمَ سَبْتِهِم شُرَّعاً﴾ أي حين كانت تأتيهم الأسْماك يوم السبت ظاهرةً على وجه الماء، وكان الله يبعثها على الظهور في هذا اليوم ابتلاءً لهم ﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُون لا تَأْتِيهِمْ﴾ أي ويوم لا يفعلون عمل يوم السبت من تعظيمه بترك الصيد والاشتغال بالعبادة لا تأتيهم الأسْماك ولا تظهر ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي مثل ذلك الابتلاء يختبرهم الله به بسبب خروجهم عن طاعة الله ليظهر منهم المحسن والمسيء فيظهر السمك على ظهر الماء بكثرة في اليوم المحرّم عليهم الصيد فيه، ويختفي في الأيام المحلل الصيد فيها، فلما رأوا ظهورها وكثرتها يوم السبت أغْراهم ذلك بالاحتيال على صيدها بِنَصْبِ الشباك يوم الجمعة حتى إذا ما وقع فيها الصيد يوم السبت أخَذُوهُ يوم الأحد، أو ٱتخذوا حياضاً يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج ويأخذونها منها يوم الأحد.

﴿وَإذْ قَالَت أُمةٌ مِنْهُم لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أو مُعَذِّبُهُم عَذَاباً شَديداً﴾ أي وٱذْكُر حين قالت جماعة منهم لم يقعوا في معصية الله، قالوا للجماعة الصالحة التي كانت تعظ الأشْرار المعتدين: لأي سببٍ تنصحون قوماً

سيهلكهم الله بسبب عصيانهم أمره، أو معذبهم عذاباً شديداً في الآخرة؟ فأجابهم هؤلاء الوعّاظ: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إلى ربّكُم وَلَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ أي نعظهم وعظ اعتذار إلى ربكم لئلا ننسب إلى التقصير في النهي عن المنكر، وقد أمرنا الله بالتناهي عنه، رجاء انتفاعهم بالموعظة، ولعلَّ ذلك يكون سبباً لإقلاعهم عمّا هم عليه من معصية الله.

يفهم من النص القرآني أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق:

(١) فرقة المعتدين الذين كانوا يصطادون السمك يوم السبت مخالفين بذلك أمر ربهم.

(٢) فرقة الواعظين الذين كانوا ينهون المعتدين عن خروجهم عن طاعة ربهم.

(٣) فرقة اللائمين للواعظين ليأسهم من صلاح المعتدين.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فلمّا نسي المعتدون المذنبون ما وعظهم به المتقون وأعْرضوا عنه كل الإعراض ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ أي أنجى الله من العذاب الذين كانوا يَنْهون المعتدين عن معصية الله ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِين ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ وعاقب الله الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أوامره ونواهيه بعذابٍ شديدٍ ﴿بِمَا كانوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا[1] عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُم كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾ أي فلما تجاوزوا الحَدَّ في معصية الله وتَكَبَّروا عن ترك ما نُهوا عنه جعلهم الله قردةً صاغرينَ أذِلاّء مُبْعَدِين عن كل خَيْرٍ، قيل: مَسَخَهُم اللّهُ مسخ خلْق وجسم فكانوا قِرَدَةً بالفعل، وقيل مسخهم الله مسخ خُلُق فصاروا كالقِرَدَةِ في طيشها وشرّها وإفسادها ما تصل إليه أيديها.

(١) عتوا: يُقال عتا يعتو عُتُوًّا: إذا استكبر وجاوز الحَدَّ في المعصية.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِم إلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهم سُوءَ العَذَابِ﴾ تأذّن بمعنى آذن، أي أعْلَم، والمعنى: وَٱذْكُرْ يا محمد إذْ أعلم ربّك الناس بما قضاه على بني إسرائيل من أنه سيسلط عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم سُوء العذاب من إجلاءٍ وتشريدٍ وتقتيلٍ عِقاباً لهم على ظُلمهم وفسقهم وفسادهم في الأرض ﴿إنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ﴾ فهو سبحانه سريع العقاب لمن أقام على الكفر وارتكب المعاصي ولمن رأى الحكمة في تعجيل عقابه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإنه سبحانه كثير الغفران والرحمة لمن تاب وأصْلَحَ وتَرَكَ عصيان الله.

فالقرآن ذكر أن العذاب والاضطهاد سَيُلازمان بني إسرائيل إلى يوم القيامة ومن المعلوم أن بني إسرائيل قد اضطُهدوا قبل الإسلام على يد عِدّة فاتحين، ولكن ما أخبر به القرآن بأن العذاب سيلازمهم إلى يوم القيامة والذي حصل بعد الإسلام في مناطق مختلفة من العالم لهو من الأنْباء الغيبيَّة التي تحققت والتي تشهد بأنه وحي إلَهي إذْ لا يعلم الغيب إلا الله.

جاء في كتاب (الفكر اليهودي)[1] عن اضطهادات اليهود في إسْبانيا والبُرْتغال (يرجع اضطهاد العنصر اليهودي إلى فَجْرِ العهد الذي تسلمت فيه المسيحية إدارة الشؤون المدنية، إذْ ظلّت كراهية اليهود لعدة قرونٍ رَمْزاً من رموز الصلاح والتقوى عند المسيحيين، لقد هاجمتهم جميع الأمم المسيحية فأشبعتهم امتهاناً واحتقاراً... فلم يجدوا ملجأً إلاّ الأنْدلس حيث أحاطهم أُمراء الإسلام بعطفٍ خاص. لكن عندما احتل النصارى الأندلس انهدم هذا الملاذ الوحيد... إذ تقرر إخراج اليهود منها، ففي سنة ١٣٩٠م ألْقى واعِظٌ معروفٌ يدعى هرناندو مارتينيز خطبة مثيرة هاج لسماعها الكاثوليك بأشبيلية فهاجموا حيَّ اليهود وقتلوا منهم ٤٠٠٠ نفس... وفي العام التالي

(١) تأليف ج. هـ. هرتس الحاخام الأكبر للأمبراطورية البريطانية، ترجمة الدكتور ألفريد بلوز.

وقعت حوادث مماثلة في بلنسيا وقرطبة . . . وطليطلة وبرشلونة جلّها بتحريض الواعظ ذاته، وقد بذل رجال الكنيسة كل جهودهم في سبيل طرد العنصر اليهودي . . . ففي أقل من ثلاثة أشهر أرغم جميع اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية على مغادرة البلاد الإسْبانية وإلا حُكِمَ عليهم بالإعْدام، وقد وقع كثيرون منهم في يد القراصنة الذين انتشروا حول الشواطىء فجرّدوهم من أمْوالهم واتخذوهم عبيداً أرقّـاء، هذا عدا الذين ماتوا جوعاً أو أُصيبوا بالطاعون فأهلكهم. . . ثم لجأ ثمانون ألْفاً إلى البُـرْتغال ارتكاناً على وعد ملكها، لكن القساوسة الإسْبانيين أثاروا الرأي العام في تلك البلاد وعمدوا إلى إقْناع ملك البُرْتغال بعدم إيوائهم، فأصدر أمراً يقضي بإبْعاد جميع اليهود البالغين، أما الأولاد الذين لا تتجاوز سنّهم أربعة عشر عاماً فقد انتُـزعوا من أحْضان أُمّهاتهم لكي يربوا وينشأوا على مبادىء الدين المسيحي.

لم يقتصر طرد اليهود على إسْبانيا والبُرْتُغال فقط، بل طُردوا وشُرِّدُوا من جميع دول أوروبا وإليك أيها القارىء لائحة بحوادث الطرد.

في إنكلترا: طرد الملك إدوارد اليهود سنة ١٢٩٠م.

وفي فرنسا: طردهم الملك فيليب الجميل سنة ١٣٠٦م. وسَمَحَ لِعَدَدٍ ضئيل منهم بالعودة، ولكنهم طُردوا مجدداً سنة ١٣٩٤م.

وفي المجر: طُردوا سنة ١٣٦٠م. ولكنهم ما لبثوا أنْ عادوا فيما بعد، وفي سنة ١٥٨٢م طُردوا مجدداً.

وفي بلجيكا: طُردوا عام ١٣٧٠م.

وفي تشيكوسلوفاكيا: شُـرِّدوا من براغ سنة ١٣٨٠م. وكثيرون عادوا فاستوطنوها سنة ١٥٦٢م، وفي سنة ١٧٤٤م طردتهم الأمبراطورة ماريا تيريزا.

وفي النمسا: طُـردوا سنة ١٤٢٠م على يد الملك ألبريخت الخامس.

وفي هُولَنْدا: طُـردوا من أوتريخت عام ١٤٤٤م.

وفي إيطاليا: طُـردوا من مملكة نابولي وسردينيا سنة ١٥٤٠م.

وفي ألْمانيا: نُـفُـوا من بافاريا سنة ١٥٥١م، ثم كثر اضطهادهم على يد النازيين في الحرب العالمية الثانية وأُزهقت فيها أرواح مئات الألوف منهم.

وفي رُوسيا: طُـردوا سنة ١٥١٠م. ثم عادوا تدريجياً إليها متعرضين لأنواعٍ شتى من الاضطهادات وأبْرزها الاضطهاد الذي حصل في أُوكرانيا طيلة عام ١٩١٩م.

جاء في كتاب (الفكر اليهودي) في شأن هذا الاضطهاد: (لقد ذُبِحَ أكْثر من مائة ألْف يهودي ـ رجالاً ونساء وأطفالاً ـ وأُهْرِقت دماؤهم في الشوارع. ارْتكَبَ تلك الأعمال جنودٌ غير نظاميين تحت إمرة القائدين دنكين وتبلورا، وقد أسكرتهم حمرة الدماء، فابتكروا وسائل تعذيب شيطانية.

وإن من الأسباب التي اضطهدتهم الشعوب لأِجْلها عدم اندماجهم بها وعدم إخْلاصهم ووفائهم للذين استضافوهم ولسلوكهم الشائن معهم، وذلك لما يظنونه من أنهم شعب يمتاز على الشعوب التي يعيشون بينها وأنه يحق لهم اغتصاب حقوق الغير، ولعلَّ تعاليم التلمود ـ أحد كتبهم المقدسة ـ تركت أثراً كبيراً في تكييف سلوكهم. فمن تعاليم التلمود:

«إنَّ أمْلاك غير اليهود تُعتبر كالمال المتروك الذي يحقّ لليهودي أنْ يتملّكه». وإن «الله قد منح اليهود السلطة على مقتنيات وحياة كل الشعوب» وأنه «كما يسمو الإنسان على الحيوان كذلك يسمو اليهودي على باقي أهل الأرض ذوي الطبيعة البهيمية».

واليوم وبعد أن عَلَوْا في الأرض وٱمتلكوا جميع أنواع الأسْلِحة الحديثة الفتَّاكة، واقترفوا من المظالم والمجازر في حق الشعب الفلسطيني ما تقشعرّ منه الأبْدان فإن العدالة الإلّهية لن تتركهم يتمادوا في ظلمهم، فسيتحقق وعد الله فيهم ـ بإذنه ومشيئته ـ كما تحقق من قبل بأن يبعث عليهم عذاباً جزاء ما اقترفته أيديهم، وكل آتٍ قريب.

وصدق الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الجامع الأزهر حين قال: «وما قامت لليهود تلك الدولة إلا لأن المسلمين قد فَرَّطُوا في حق خالقهم وفي حقِّ أنفسهم ولم يأخذوا بالأسباب التي شرعها الله لحرب أعدائهم فكانت النتيجة أن أقام اليهود دولتهم في قلب البلاد الإسلامية».

وأضيف على ذلك: خذلان الأمم الإسلامية وتقصيرهم في نجدة إخوانهم الفلسطينيين بموجب ميثاق الأخوة الإسلامية الذي يوجب نصرة المؤمن المظلوم والدفاع عنه عند الاعتداء عليه، كما كان للفرقة والتنازع على المناصب والخيانة دور في ذلك.

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

شرح المفردات

وقطّعناهم في الأرض أُمَماً: وفرَّقْناهم في أقْطارِ الأرض فِرَقاً وجماعات.

ومنهم دون ذلك: ومنهم غير المؤمنين كالكافرين والفاسقين.

وبلوناهم: اختبرناهم وامتحنّاهم.

فخلف من بعدهم خَلْفٌ: فجاء جيل بعد جيل وقَرْنٌ بعد قَرْن.

يأخذون عَرَضَ هذا الأدْنى: يأخذون عوضاً عن قول الحق متاع الدنيا وحطامها وهو الرشوة في الأحكام.

مِيثاق الكتاب: عهد الله الوثيق المؤكد، والمراد بالكتاب: التوراة.

يُمَسِّكُونَ: يتمسكون ويعتصمون.

نَتَقْنَا الجَبَلَ: قلعناه ورفعناه.

ظُلَّة: كل ما أظلَّك من سَقْفٍ أو غمامة.

وظنوا: أيْقنوا، وكثيراً ما يُستعمل الظن في القرآن بمعنى التيقن.

واذكروا ما فيه: واعملوا بما فيه من الأحكام.

ابتلاءُ اللَّه لبني إسرائيل وتهديده لهم

وبعد أن توعّد الله بني إسرائيل في الآية السابقة بأن يُرسل عليهم سُوء العذاب إلى يوم القيامة جاءت الآية التالية تُبيّن أثراً من آثار هذا الوعيد وهو تفريقهم في الأرض، قال الله تعالى:

﴿**وَقَطَّعْنَاهُم في الأَرْضِ أُمَماً**﴾ أي فَرَّقَهُم اللَّهُ وصيّرهم في الأرض جماعات، كل جماعة في قطرٍ من أقطارها، وقد فرقهم الله في الأرض حتى لا تكون لهم دولة باجتماعهم في قطر واحد يترتب عليه أذًى لغيرهم، إلا أنهم لما اجتمعوا وصارت لهم دولة في فلسطين آذوا سكانها الأصليين العرب واقترفوا في حقهم أفظع أنواع الجرائم ﴿**مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ**﴾ منهم الصالحون الذين آمنوا بالله واتّبعوا رُسله وثَبَتُوا على دينهم قبل عيسى عليه السلام، كما أن منهم الذين آمنوا بنبوة محمد ﷺ واتّبعوه، ومنهم أناس دون وصف الصلاح وهم كفارهم الذين كانوا يخالفون أوامر الله ويفسدون في الأرض ﴿**وَبَلَوْنَاهُم بِالحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ**﴾ كما أن الله اختبرهم وامتحنهم بالنّعم والعافية ليشكروا ربهم، كذلك امتحنهم بالشدائد والأمراض ليرجعوا إلى طاعته ويتوبوا إليه.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ﴾ فجاء من بعد هؤلاء الذين فيهم الصالح وغير الصالح خلف سوء لا خَيْرَ فيهم، والخَلْفُ: القَرْن يأتي بعد القَرْن أي أُمَّة بعد أمَّة ﴿وَرِثُوا الكِتَابَ﴾ ورثوا عن آبائهم كتاب الله الذي أُنْزِلَ عليهم، والمُرادُ بكتاب الله: التوراة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ والعَرَضُ: مَتاعُ الدنيا وحطامها، والأدْنى: الأقرب، والمراد به الدنيا، والمعنى: يأخذون عوضاً عن قول الحق والعمل بالتوراة مَتَاع هذه الحياة الدنيا وذلك بأخذهم المال الحرام وقبولهم الرشوة في الأحكام مقابل منفعة لهم وإرضاء لشهواتهم ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ويقولون في أنْفسهم سَيَغفِرُ اللَّهُ لنا ما فعلناه، وهذا اغترار منهم وكذب على الله ﴿وإنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يأْخُذُوهُ﴾ والحال أنهم مصرّون على الذنب عائدون لمثله غير مبالين بأخذهم المال الحرام من عقاب الله إياهم ولا مكترثين لِتَبِعَةِ أعمالهم ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثَاقُ الكِتَابِ أَن لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي ألَم يأخذ الله على بني إسرائيل العهد في التوراة أن لا يقولوا على الله إلاّ الحقّ وقد درسوا ما فيها من حلال وحرام، فما بالهم يتعاطون الحرام ويصرون عليه ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِين يَتَّقُونَ﴾ وإن نعيم الدار الآخرة خَيْرٌ من متاع الدُّنيا للذين يخافون الله فلا يعصونه ﴿أَفلا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون أن النعيم الدائم في الآخرة خيرٌ لكم من متاع الدنيا القليل الذي لا يدوم.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ﴾ أي والذين تمسّكوا بالكتاب الذي جاء به موسى من عند ربّه وهو التوراة، يُؤمنون به ويحكمون بما فيه، فأدى ذلك بهم إلى الإيمان بالكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ وهو القُرآن ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ وأدوا الصلاة المفروضة عليهم أداءً كاملاً بأوقاتها مستوفية شروطها وأركانها ﴿إنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ﴾ فالله سبحانه لا يضيع ثواب المصلحين الذين أصْلحوا أنفسهم باتباع الفضائل التي أمرهم الله بها، وأصْلحوا مجتمعهم من الفساد، وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب.

وبعد أن أعْطى الله بني إسرائيل التوراة رفضوا العمل بما فيها من الأوامر والنواهي مُتعلِّلين بأنها حمل ثقيل لا يطيقونه، وحيال تمردهم هذا رفع الله جبل الطور من أصْله ثم جعله فوق رؤوسهم تهديداً لهم، فسجدوا لله، وانْقادوا إلى ما أمرهم به، ورَفْعُ الجَبَلِ معجزة أيّد الله بها موسى تصديقاً لما سيبلّغهم عن الله من أحكام التوراة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُم كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي واذكر يا محمد حين اقتلعنا الجبل ورفعناه فوق بني إسرائيل كأنه سحاب فوقهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِم﴾ وأيْقنوا أنه واقع بهم إن لم ينفذوا ما أمرهم الله به من أحكام ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ خذوا ما أعْطيناكم من أحكام الشريعة بجدّ وعزم على تحمّل مشاقّها ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ واذكروا ما في التوراة من أحكام بالعمل بها فإن في ذلك تطهيراً لقلوبكم وتزكية لنفوسكم لعلّكم بذلك تجتنبون قبائح الأعمال ورذائل الأخْلاق.



﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

شرح المفردات

ظهُورهم: جمع ظَهْر، ويراد به العمود الفقري الذي فيه النخاع الشوكي.

ذريتهم: سلالتهم من ذكور وإناث.

أَشْهَدَهم على أنفسهم: طلب منهم أن يعترفوا ويقروا بربوبيته.

أن تقولوا: لئلا تقولوا.

عن هذا: عن وحدانية الله وربوبيته.

من قبل: من قبل أن نوجد في الدنيا.

المُبْطلون: المراد بهم المشركون من آبائهم.

نفصّل الآيات: نوضح الدلائل.

لعلَّهم يرجعون: رجاء رجوعهم عن تقليد آبائهم في الشرك بالله.

إقرار بني آدم بربوبية اللَّه وحده

وبعد الكلام عن بني إسرائيل وما أخذ الله عليهم من مواثيق وعهود على طاعته، انتقلت بنا الآيات إلى الكلام عن بني آدم عامة حين أخذ الله عليهم المواثيق والعهود بالإقرار بربوبيته وحده وهم في عالم الغيب قبل أن يظهروا على مسرح الحياة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي واذكر يا محمد للناس حين أخرج ربك من أصْلاب بني آدم نَسْلاً بعد نَسْلٍ وجيلاً بعد جيل ﴿وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِم﴾[1] وطلب منهم أن يعترفوا ويقرّوا بأن الله ربهم ومالك أمرهم، وأنه لا إلَه إلا هو بعد أن أظهر لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته.

وبعد أن هيأهم الله لقبول ذلك وجّه إليهم الخطاب بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾ فكان جوابهم ﴿قَالُوا: بَلَى﴾ أي قالوا: نعم أنت ربّنا وحدك لا شريك لك، وبذلك الاستفهام التقريري من الله بقوله: ﴿أَلست بربكم﴾ والإجابة منهم بقولهم: (بلى) تم أخذ الميثاق من الله على عباده.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام

---

(١) يرى بعض المفسرين أن هذا من باب التمثيل أي وبعد أن نصب الله تعالى الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم فكأنه سبحانه أشهدهم على أنفسهم وقال (أَلَسْت بربكم) وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا وأقررنا بوحدانيتك. وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى، ونظيره قوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

بنعمان[١] يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ـ أي خلقها ـ فنثرها بين يديه ثم كلّمهم فَتَلا: ﴿**ألست بربكم قالوا بلى شهدنا...**﴾ إلى آخر الآية[٢]. فذريّة آدم أُخذت من ظهره، وكُلٌّ مِنّا قبل أن تحمل به أمه كان ذَرَّةً في ظهر أبيه، وأبُوه كان ذَرَّةً في ظهر أبيه، وهكذا توالت السلسلة حتى آدم عليه السلام.

أما بشأن الفطرة التي أوْدعها الله في الإنسان بالاهتداء إلى خالقه فقد جاء في القرآن ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾[٣] [الروم: ٣٠] ولنرجع إلى متابعة الآيات، فبعد أن أخذ الله على بني آدم الميثاق وقالوا (بلى) قال الله سبحانه ﴿**شَهِدْنَا، أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ أي شهدنا عليكم يا بني آدم بما اعترفتم لئلا تقولوا يوم القيامة عند محاسبتكم على أعمالكم: إنا كنا عن الإيمان بك يا رب والإقرار بوحدانيتك غافلين.

﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِم**﴾ أو تقولوا إن آباءنا كانوا يجعلون لله شريكاً، وكنا ذرية لهم فاقتدينا بهم ﴿**أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ**﴾ أفَتُؤاخذنا يا ربّ، فتهلكنا بما فعل أهل الباطل من آبائنا وتجعل عذابنا مثل عذابهم مع قيام عذرنا بتقليدهم؛ ولكن هذا العذر لا يجديهم نفعاً، وهذا دليل على استهجان تقليد الآباء تقليداً أعمى بدون عِلْمٍ واقتناع، وأن تقليد الآباء إذا كانوا على باطل لا يُنجيهم من عذاب الله.

﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ**﴾ أي وبمثل ذلك البَيَان الحكيم يُبيّن الله الدلائل على وحدانيته ليرجع الذين جعلوا له شريكاً عن غيّهم وضلالهم وتقليدهم لآبائهم.

---

(١) بنعمان: وادٍ بجبل عرفة.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير.

(٣) الحَنيف: هو مَنْ أَسْلَمَ لأَمْر الله وكان على دِيْنِ إبراهيم دين التوحيد ودين الإسلام.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

شرح المفردات

واتْلُ عليهم: واقرأ عليهم.

فانسلخ منها: فخرج منها بكفره بها وفارقها كما تنسلخ الحية من جلدها.

فكان من الغاوين: فصار من زمرة الضالين الراسخين في الغواية.

لرفعناه بها: لرفعناه إلى منازل الأبرار.

أخلد إلى الأرض: ركن إلى الدنيا واطمأن بها.

تحمل عليه: تطارده بالضرب والزجر.

يلهث: يخرج لسانه أثناء التنفس الشديد.

ذرأنا: خلقنا.

الجن: عالم حي عاقل مكلف خفي لا يُـدرَكُ بحواس البشر.

لا يفقهون: لا يفهمون ولا يدركون.

كالأنعام: كالإبل والبقر والغنم والماعز.

وللَّه الأسماء الحسنى: وللَّه الأسماء التي تدل على أكمل الصفات وأحسن المعاني.

يلحدون في أسمائه: يميلون وينحرفون عنها إلى الباطل كأن يسمّوا أصنامهم بأسماء مشتقة من أسماء الله.

مثال لمن أعرض عن هدى اللَّه

وبعد أن ذكر الله تعالى أنه أخذ العهد على البشر بالإقرار بربوبيته، ضَرَبَ مثلاً للذي أعرض عن العمل بآيات الله واصفاً إياه بأخسّ الصفات، قال الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ الّذي آتيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ أي واقرأ يا محمد على من أرسلك الله لهدايتهم خبر الذي أعطيناه علماً بآياتنا المنزلة على رسلنا ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ فخرج منها بكفره بها، والسلخ حقيقته نزع جلد الحيوان من جسده، كما يُسلخ جلد الشاة عنها، والسلخ هنا استعارة تصور ترك العمل بمقتضى آيات الله ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي لحقه وأدركه فصار قدوة ومتبوعاً للشيطان وملازماً له ﴿فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ﴾ فصار من الراسخين في الغواية والضلال بإعراضه عن آيات الله التي آتاه إياها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي لو شاء الله هدايته إلى الحق لرفعه بتلك الآيات إلى منازل الأبرار وأعلى درجات الكمال إذا استنار بهديها وعمل بموجبها ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ولكنه ركن إلى الدنيا ومال إليها واستحوذت عليه بشهواتها وملاذّها، وآثرها على الآخرة فلم ينتفع بشيء من هذه الآيات بل اتّبع هواه، واتّباع الهوى يضل صاحبه عن سبيل الله وينحرف به إلى سبل الغواية المهلكة ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ واللهاث إخراج اللسان لتعب أو عطش، أي مثل هذا الرجل في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن

تطارده بالضرب والزجر يخرج لسانه من أثر الإرهاق ﴿أو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ وإن تركت الكلب دون أن تطرده أو تزجره فإنه يظل يخرج لسانه كذلك، فطبيعة الكلب أن يلهث دائماً في حال التعب وحال الراحة، وحال الارتواء وحال العطش.

كذلك الإنسان إذا ترك دينه من أجل دنياه، وارتمى على شهوات الدنيا وملاذّها وأعرض عن هدى الله، يكون مثله كمثل الكلب اللاهث فهو في همّ دائم وشغل شاغل في جمع المال والتمتع بملاذّ الدنيا، وكلما أصاب سعة من الرزق زاده ذلك طمعاً وإعياء، إن وعظته ظل على ضلاله، وإن تركت وعظه فهو في ضلال مستمر.

ويقول الشيخ شعراوي رحمه الله في تفسيره: «فالإنسان الذي لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة في الحياة حتى وإن كان في نعمة لأنه معزول عن الله، وما دام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل: أيدوم لي هذا النعيم أو لا يدوم؟ ويعيش دائماً في قلق ورعب مخافة أن يفوته النعيم أو أن لا يدوم له، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبه».

﴿ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ذلك المثل المتناهي في القبح والذم المتمثل بالكلب اللاهث هو صفة جميع الذين كذبوا بآيات الله التي أوضحت لهم سبل الهداية ﴿فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرونَ﴾ فاقصص يا محمد على قومك هذه الأخبار رجاء أن يتفكروا ويعتبروا بما في هذه القصص من عِبَرٍ ومواعظ. وفي قوله تعالى: لعلَّهم يتفكرون، دعوة إلى التفكر واستعمال العقل في شأن العقيدة.

﴿سَاءَ مَثَلاً القَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كَانوا يَظْلِمُونَ﴾ أي بئس مثل القوم المكذبين بآيات الله المشتملة على الهداية والحق، وقد ظلموا أنفسهم بالإعراض عنها وحرمانها من الاهتداء بها وما يترتب على ذلك من خسارتهم سعادة الدنيا والآخرة.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ ومن يرشده الله إلى دينه أو يتولّى هدايته بعد أن سلك طريق هداه، فهو المهتدي دون سواه ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ومن يخذله الله بالحرمان من هذا التوفيق للهدى، ويسير على درب الضلال فأولئك هم الخاسرون في دنياهم وآخرتهم.

فالله سبحانه ذكر صفة من هداه بصيغة المفرد حيث قال ﴿فهو المهتدي﴾ إشارة إلى أن الحق واحد لا يتعدد، كما ذكر صفة الذين ضلّوا بصيغة الجمع حيث قال ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للإشارة إلى تعدد أنواع الضلال وتنوّع وسائله وطرقه وهذا ما أشار إليه القرآن في موضع آخر حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ثم وصف الله حالة الكفار بصورة مزرية تنفر منها النفوس، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّم كثيراً من الجِنِّ والإِنسِ﴾ أي ولقد خلقنا كثيراً من الجن والإنس ليعذَّبوا بنار جهنم وهم الكفار الذين أعرضوا عن آيات الله ﴿لَهُمْ قلوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ والقلب هو العضو المعروف في البدن وقد استعمله القرآن بمعنى العقل وبمعنى الوجدان النفسي الذي يعبر عنه بالضمير. فهؤلاء الكفار الذين مآلهم إلى النار يوم القيامة لهم قلوب لا يفكرون بها في آيات الله المنزلة على رسله ولا يفهمون ما تصلح به نفوسهم من توحيد الله الذي يجنبهم الخرافات والأوهام ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُون بِهَا﴾ ولهم أعين ولكن لا يبصرون بها طريق الحق والهدى ولا ينظرون نظرة تأمل في ما خلق الله من مخلوقات تدل على عظمة خالقها ووحدانيته ﴿ولهم آذانٌ لا يَسْمَعُون بِهَا﴾ ولهم آذان ولكن لا يسمعون بها آيات الله ومواعظه فيتدبرونها ويستفيدون منها ﴿أُولَئِكَ كالأَنْعَامِ﴾ فهؤلاء كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل. فالإنسان فضّله الله على سائر الحيوانات بالعقل والإدراك الذي يميز به بين الحق والباطل فإذا سُلب العقل والإدراك فلا فرق بينه وبين الأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ بل إن

الكفار أضل من الأنعام لأن الأنعام تعرف ما يضرها وما ينفعها بغريزتها أما الكفار فكأن لا عقل لهم ولا غريزة ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الغَافِلونَ﴾ أي غافلون عن آيات الله التي ترشدهم إلى ما فيها سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿ولِلَّـهِ الأسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ والحسنى: مؤنث لكلمة الأحسن، أي للَّه الأسماء والصفات التي هي أحسن الأسماء وأجلّها لاشتمالها على أحسن المعاني وأشرفها ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ إما بمعنى التسمية كقولهم دعوته زيداً أي سميته زيداً، وإما بمعنى الدعاء والنداء، فقد أمر الله المؤمنين أن يدعوه بأسمائه الحسنى، فإنه إذا دُعي الله بأحسن أسمائه وكلها حسنى كان ذلك من أسباب إجابة الدعاء ﴿وَذَروا الَّذِين يُلْحدونَ في أَسْمَائِهِ﴾ أي وابتعدوا عن الذين يميلون بأسمائه إلى ما لا يليق بذاته العلية. والإلحاد في أسماء الله هو الميل والانحراف فيها إلى الباطل من تحريف أو تشبيه أو شرك أو ما ينافي وصفها بالحسنى، ومن إلحاد المشركين في أسماء الله الحسنى تسمية أصنامهم بأسماء مشتقة من أسماء الله: كتسميتهم اللات: من الله، والعُزّى: من العزيز، ومناة: من المنّان ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي سيُنزل الله عقوبته بالمشركين لعدولهم عن عبادة الله وحده إلى عبادة الأصنام.

هذا وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «إن للَّه تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة والله وِتْر[١] يحب الوتر»[٢] ومعنى أحصاها أي عدها وحفظها، وتضمن ذلك الإيمان بها والتعظيم لها وأخذ العبرة من معانيها.

وفي رواية الترمذي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للَّه تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة؛ هو الله الذي لا إله إلاّ هو، الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، الخالق، البارىء، المصوِّر،

---

(١) الوتر: الفرد ومعناه في وصف الله تعالى أنه الواحد الذي لا شريك له ولا نظير.
(٢) متفق عليه.

الغفار، القهَّار، الوهَّاب، الرزَّاق، الفتَّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحَكَم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العليُّ، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأوّل، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البرّ، التوّاب، المنتقم، العَفوُّ، الرؤوف، مالك المُلْك، ذو الجلال والإكرام، المُقْسط، الجَامع، الغَنيّ، المغني، المانع، الضارّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور».

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

شرح المفردات

أمة: جماعة.

سنستدرجهم: سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم بالإنعام والإمهال حتى يفاجئهم الهلاك وهم غافلون.

وأملي لهم: أمهلهم ولا أتعجل في معاقبتهم.

إن كيدي متين: إن أخذي لهم بالهلاك قوي شديد.

جِنَّة: خبل وجنون.

نذير: الإنذار هو التبليغ مع التخويف.

مبين: ظاهر واضح.

ملكوت: هو المُلْكُ العظيم زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة.

يذرهم: يتركهم.

طغيانهم: تجاوزهم الحد في الكفر والعصيان.

يعمهون: يترددون ويتحيرون.

دعوة إلى التفكر في ملكوت السماوات والأرض

وبعد أن بين القرآن فيما سبق بأن الله خلق لجهنم كثيراً من الجن والإنس بسبب ضلالهم بيّـن في مقابل ذلك صفة من ساروا على هدى الله، قال الله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدون بِالحَقِّ﴾ أي ومن جملة من خلقهم الله للجنة جماعة يهتدون بالحق ويدعون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحق يقضون بين الناس وينصفون فيما بينهم والمراد بهم أمة محمد لقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[1] وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان، ولا مكان دون مكان بل هم في كل مكان وفي كل زمان.

﴿والَّذِين كذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والذين جحدوا آيات الله المنزلة من عنده ولم يعملوا بها واستهزأوا بها ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ سَنَسْتَدْنِيهِم ونقربهم إلى الهلاك شيئاً فشيئاً وذلك بإفاضة النعم عليهم وهم مقيمون

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

على المعاصي، فكانوا كلما اقترفوا ذنباً أُعطوا نعمة استدراجاً لهم فظنوا لعظم غفلتهم عن الله وعن سننه في خلقه أن ذلك إكرام لهم إلى أن يأتيهم عقاب الله على حين غفلة. ولذا قيل: إذا رأيت الله أنعم على عبده وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج. ويتابع الله قوله في شأنهم ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أطيل لهم المدة وهم في بطرهم وطغيانهم وأؤخر عنهم العقوبة ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ إن عقابي لهؤلاء قوي شديد، وسُمي عقاب الله لهم كيداً لأنه على خلاف ما كانوا يظنون بأنهم آمنون ولنزوله بهم من حيث لم يكونوا يتوقعون.

وقد كان المشركون يتهمون محمداً بالجنون بسبب هذا الدين الذي يدعوهم إليه لذا جاء الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِنْ جِنَّةٍ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، و «ما» نافية. وجِنّة مصدر بمعنى الجنون. والمعنى: أَكَذَّبُوا رسول الله محمداً ولم يتفكروا فيما جاءهم به من الوحي الإلهي؟ إنهم إنّ تفكروا في ذلك مليّاً أوشكوا أن يعرفوا الحق وأن صاحبهم محمداً ما به من جنون كما يزعمون. ووصف الله محمداً ﴿بِصَاحِبِهِم﴾ لأنهم كانوا أدرى الناس بسلوكه بينهم، فقد عرفوا كل صغيرة وكبيرة عنه، فقد كان موصوفاً بينهم بالصدق والأمانة ورجاحة العقل، فلم يجار قومه في عبثهم وضلالهم بل كان مترفعاً عن كل ما يخدش المروءة، ولم يقلدهم في عبادتهم للأصنام. فالمقام مقام تفكر وتأمل فيما جاء به من عند الله من القرآن، وليس إلقاء القول جزافاً في حقه واتهامه بالجنون، فالإصلاح الديني والأدبي والاجتماعي الذي قام به محمد ﷺ لا يمكن أن يكون ثمرة جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما محمد إلا مُحَذِّر ومخوف تحذيراً واضحاً من عقاب الله من يرفضون دين الله ويعيشون في الأرض فساداً وظلماً.

ثم تأتي الآية التالية تدعو المشركين إلى التفكر في خلق السماوات والأرض الذي ينبىء عن وجود خالق لهما يستحق العبادة وحده.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُروا في مَلَكُوتِ السَّموات وَالأَرْضِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ من إعْراضهم عن النظر والتأمل في ملكوت السموات والأرض، والملكوت: من أبنية المبالغة في اللغة، أي الملك العظيم ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّـهُ مِنْ شَيءٍ﴾ أي ألم ينظروا كذلك فيما خلق الله من شيء، وهذا الشيء يشمل أصغر ما في الوجود كالذرّة والخلية الحية ويشمل ما كان في العِظم والحجم كالأجرام السماوية وكوكبنا الأرضي كما يشمل ما أودع الله في الأرض من أحياء ونبات وأتربة وماء ومعادن كل ذلك يشهد بأن لها خالقاً أبدعها ولم تُوجَدْ صدفة أو بعد تطور ملايين السنين كما يدعي الماديون الملحدون.

ثم إن هذا النظام العام في هذا الكون الذي يجري على سنن مطردة يدل على أن مصدره واحد، وتدبيره يرجع إلى علم عليم واحد، وقدرة قدير واحد، وحكمة حكيم واحد، وصدق من قال في وحدانية الله عند التأمل في مخلوقاته:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

إن كل شيء في الوجود له مؤثر، وكل حادث له محدِث، وكل صنعة لها صانع وهذه من البديهيات في مفهوم العقل، فتعالى الله مبدع الكون الذي تعجز العقول عن الإحاطة بعلمه وحكمته وقدرته.

وبعد هذا البيان الموجز في عظمة الله يأتي عقب ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَن عَسَى أن يَكُونَ قَدِ اقْتَربَ أجَلُهُم﴾ أي أولم ينظروا أيضاً ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيموتوا على الكفر، وهذا التحذير حث للكفار على التفكر فيما يردّهم إلى الصواب والحق، ويردعهم عما هم عليه من ضلال قبل فوات الأوان بحلول موتهم فجأة وما يعقبه في الآخرة من ثواب أو عقاب على ما فعلوه في دنياهم ﴿فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إذا لم يؤمن هؤلاء الكفرة بهذه البراهين الدالة على وحدانية الله وصدق نبوّة محمد ﷺ وبالقرآن المنزل عليه فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون.

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّـهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾ ومن يوقعه الله في الضلال بسبب اختياره

الضلال على الهدى فلن يجد هادياً يهديه من دون الله ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ويتركهم الله في تجاوزهم الحد في الكفر والضلال مترددين حيارى لا يهتدون إلى الحق سبيلا.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

شرح المفردات

الساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامة.

أيّان مرساها: متى إثباتها واستقرارها.

لا يجلّيها: لا يظهرها ولا يكشف عنها.

ثَقُلت: عظمت لشدتها.

بغتة: فجأة.

كأنك حفيّ عنها: كأنك عالم بها.

التذكير بيوم القيامة

وبعد أن دعا القرآن المشركين إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض للتوصل إلى الإيمان بالله ذكّرهم بعد ذلك بيوم القيامة حيث مرجعهم إلى الله سبحانه فيحاسبهم على أعمالهم:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ السائلون قوم من قبيلة قريش سألوا رسول الله محمداً ﷺ عن الساعة وهي يوم القيامة متى وقوعها؟ وهم سألوا عنها لا إيماناً بها بل استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها. والساعة في اللغة جزء من أجزاء الليل والنهار وهي في اصطلاحنا الحاضر الوقت الذي يقدّر بستين دقيقة، والغالب في استعمال القرآن للساعة يوم القيامة حيث ينفرط نظام الكون وما يعقب ذلك من أهوال وموت الخلائق جميعها ثم يبعث الله بعد ذلك الناس أحياء بعد موتهم لمحاسبتهم على ما اقترفوه في دنياهم وما ينشأ عن ذلك من ثواب لهم أو عقاب. ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ رَبّي لا يُجَلّيها لِوَقْتِهَا إلاّ هُوَ﴾ أي قل يا محمد للسائلين عنها: لا يعلم الوقت الذي تقوم فيه القيامة إلاّ الله سبحانه الذي استأثر بعلمها ولا يظهرها في وقتها أحد سواه ﴿ثَقُلَتْ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ ثقل وقعها على السماوات والأرض لعظمها وشدتها، لأن السماء تنشق، والنجوم تتناثر، والجبال تتفتت والبحار تنضب ﴿لا تَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً﴾ لا تأتيكم أيها الناس إلا فجأة وعلى حين غفلة منكم ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يسألك الناس يا محمد عن وقت وقوع القيامة كأن عندك علماً عنها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس لي علم بالوقت الذي تأتي فيه وإنما علمها عند الله وحده ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون بأن أمر القيامة مختص علمه بالله وحده لا يعلم متى حصولها أحد سواه.

ثم يأمر الله بعد ذلك رسوله محمداً بأن يبيّن لقومه بأنه بَشَرٌ وليست فيه صفات الألوهية كما كان بعض البشر يعتقدون ذلك في أنبيائهم ودعاة الإصلاح بينهم، قال الله تعالى:

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسي نَفْعاً ولا ضَرًّا إلاَّ ما شَاءَ اللَّهُ﴾ أي قل يا محمد لقومك: إني لا أملك لنفسي جَلْبَ نفع في وقت ما، ولا دفع ضر في وقت ما مستقلاً

بقدرتي، وإنما يحصل ذلك بمشيئة الله سبحانه وقدرته.

وإذا كان محمد ﷺ لا يقدر على جَلْبِ نفع أو دفع ضر لنفسه إلا بمشيئة الله فمعنى ذلك أنه لا يملك لغيره نفعاً ولا ضراً إلا بمشيئة الله سبحانه، وفي هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وجاء في القرآن: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٦ ـ ١٠٧].

فمدار العبودية في الإسلام هو توجّه الناس إلى الله فيما يرجون من نفع أو دفع ضر، ومن يتوجه إلى وليّ لكشف الضر عنه أو حصول على نفع منه فقد ارتكب نوعاً من الشرك بالله فليتعظ هؤلاء الذين يزورون قبور الأولياء والصالحين من عباد الله ويقدّمون لهم النذور ويطلبون وهم على أعتاب أضرحتهم كشف الضرّ عنهم والحصول على ما يبتغونه، ولكن ألا يعلمون أن هؤلاء الذين يطلبون منهم قضاء حوائجهم لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً؟

﴿ولَوْ كُنْتُ أعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ وقل يا محمد لقومك: لو كنت أعلم ما غاب عني من خير أو شر لاستكثرت من كل خير لعلمي بما فيه من نفع وَلَدَفَعْتُ عن نفسي كل سوء باجتناب أضراره ﴿إنْ أنَا إلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي ما أنا إلاّ رسول أرسلني الله لأُنذر العصاة والكفار وأخوّفهم من عذاب النار، وأُبشّر الذين يؤمنون بالله ويطيعونه في أمره ونهيه بنعيم الجنة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدّقون بالحق ويذعنون له ويقرّون بالثواب والعقاب من الله.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

شرح المفردات

من نفس واحدة: هي نفس آدم عليه السلام.

وجعل منها زوجها: وصيّر من جنسها زوجها وهي حواء.

ليسكن إليها: ليطمئن إليها ويأنس بها.

تغشّاها: غشيها وهو كناية عن الجماع.

حملت حملاً خفيفاً: كان حملها في البدء خفيفاً هيناً.

فمرّت به: فمضت في قضاء حاجاتها من غير مشقة.

فلما أثقلت: فلما صارت ذات ثقل بسبب كبر الولد في بطنها.

صالحاً: ولداً سليماً من العاهات.

صامتون: تاركون دعوتهم.

كيدون: اعملوا على ضرري.

فلا تُنظِرونِ: فلا تمهلوني ولا تؤخروني بعد تدبير كيدكم.

بعض مظاهر الإشراك بالله

ثم ينتقل القرآن إلى بيان خلق الإنسان من آدم وحواء وكيف دخل الشرك بالله إلى بعض ذريتهما:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي هو الله الذي بدأ خلقكم أيها الناس من نفس واحدة هي نفس آدم، ووصف النفس بواحدة للإشارة إلى وحدة أبوة البشر ووحدة الأخوة التي تستدعي عدم التناحر بين البشر لأنهم كلهم إخوة من آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وخلق من جسم آدم زوجة له وهي حواء ليكون الجنس إلى الجنس أميل حتى يتم الأنس والتوافق بين الزوجين ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن إليها وتزول الوحشة من قلبه، وفي هذه الآية دلالة على أن الغاية الرئيسية المقصودة من الحياة الزوجية سكون الروح واطمئنان النفس وليست العلاقة الجنسية البحتة كما يفهمها البعض، وهذا ما أشار إليه القرآن في موضع آخر منه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فإذا ما توفّر السكون إلى الزوجة مع الود والرحمة كانت هناك الحياة الزوجية البعيدة عن الخصام. وبعد السكون إلى المرأة تنشأ العلاقة الجنسية التي وصفتها الآية: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ الغشاء: غطاء الشيء الذي يستره من فوقه وهنا كناية لطيفة مهذبة عن الجماع وتتسق مع جو الستر الذي تدعو إليه الشريعة في البعد عن الفحش في القول ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾ أي وبعد هذا الجماع ظهرت على المرأة عوارض الحمل وكان حملها خفيفاً في بادىء الأمر ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي استمرت بذلك الحمل فقامت وقعدت وهو خفيف عليها من غير مشقة ولا عناء ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ فلما صارت الأم ذات ثقل لكبر الولد في بطنها، تأمل لفظة ﴿أثقلت﴾ فهي تُصَوِّرُ أدقَّ التصوير لحالة المرأة في أواخر حملها حيث أثقلها عن الحركة وعن قضاء حوائجها بسهولة. وعند اقتراب الولادة يصور القرآن حالة الزوجين وهما يدعوان ربهما ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا

لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي يا ربنا لئن أعطيتنا ولداً كامل الخلقة، سالماً من العيوب لنكونن من الشاكرين لنعمتك.

﴿فَلَمَّا آتاهما صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيما آتَاهُمَا﴾ أي فلما أعطاهما الله ولداً سليماً لا نقص ولا عيب في تكوينه نسبوا ذلك إلى أصنامهم ـ كما كان يفعل مشركو العرب ـ ولم ينسبوا ذلك إلى الله وحده، أو نسبوا ذلك إلى بركة عباد الله الصالحين أو القديسين، كما هو الشأن عند بعض أتباع الديانات الأخرى.

ويحتمل أن يكون المراد بالشرك بالله إيثار حب الأولاد على حبّ الله تعالى وتعلقهم بهم بما ينسيهم عبادة الله وشكره، وبما يصرفهم عن الالتزام بما شرعه الله من الحلال والحرام ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فتعالت عظمة الله وتنزه عن أن يكون له شريك في ملكه.

ثم بيّن القرآن أن هذه الأصنام التي يعبدها المشركون لا تخلق شيئاً:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيئاً﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي هل يصح أن يجعلوا مع الله شركاء من أصنام مادتها من حجر أو خشب أو نحاس صنعوها بأيديهم وجعلوها آلهة، ثم قاموا بعبادتها وهي ليس لها القدرة على أن تخلق شيئاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وهم مخلوقون، والمخلوق يكون محتاجاً إلى غيره وعاجزاً، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون إلهاً معبوداً.

﴿ولا يَسْتَطِيعُونَ لَهُم نَصْراً ولا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرونَ﴾ وهذه الأصنام لا تستطيع أن تجلب لعابديها نصراً على أعدائهم، فضلاً على أنها لا تملك أن تجلب لنفسها نصراً إن أرادها أحد بسوء.

﴿وَإِن تَدْعُوهُم إِلَى الهُدَى لا يَتَّبِعُوكُم﴾ وإن تدعوا أيها المشركون آلهتكم من دون الله لهدايتكم لا يجيبوا لكم طلباً لإرشادكم ولا يتبعوكم إلى مرادكم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُم أَدَعَوْتُموهُمْ أَمْ أَنْتُم صامِتُونَ﴾ أي سواء دعاؤكم لهم عند

الشدائد أو بقاؤكم على صمتكم وعدم دعائكم إياهم إذ هم لا يفهمون دعاءكم ولا يسمعون أصواتكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي إن الذين تعبدونهم ـ أيها المشركون ـ من الأصنام وتسمونهم آلهة من دون الله هم عباد مماثلون لكم في العبودية لأنهم في الأصل جمادات ومسخرون لأمر الله كما سخّرت الأرض والسماوات لأمره سبحانه.

وسمى القرآن الأصنام عباداً وإن كانت جمادات لأن المشركين كانوا يعتقدون أنها تضر وتنفع فهي عاقلة في نظرهم ولهذا أنزلها القرآن منزلة العقلاء تبكيتاً وتوبيخاً لهم. وقيل الخطاب يشمل طائفة من العرب من خزاعة كانت تعبد الملائكة فأعلمهم الله أنهم عباد أمثالهم لا آلهة. ثم عقّب القرآن على ذلك بقوله: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي نادوا ـ أيها المشركون ـ هذه الأصنام، وادعوهم لجلب نفع أو دفع ضر ولتكن منهم الإجابة لدعائكم إن كنتم صادقين في ادّعائكم أنها آلهة، وهذا تهكّم واستهزاء بهم حيث إن أصنامهم لا تملك نفعاً لهم.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُون بِهَا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لها أرجل تمشي بها لقضاء حوائجكم وليست لها أيد يبطشون بها بمن يقصدكم بشرّ أو مكروه ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي وليس لهم أعين يبصرون بها أحوالكم ليحققوا لكم أغراضكم وليس لهم آذان يسمعون بها أقوالكم ليستجيبوا لرغباتكم، فكيف يعبد الإنسان من هو دونه منزلة ويسبغ عليه صفات الألوهية؟ ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾ أي قل لهم يا محمد: نادوا شركاءكم ـ أي أصنامكم ـ واستعينوا بهم على إيصال الضرر بي وامكروا بي ولا تمهلوني وتؤخروا ما قررتم إنزاله بي من الضرر فإني لا أبالي بمكركم، وفي هذا نهاية التعجيز والتحدي

لهم ولأصنامهم. وسمى الله الأصنام شركاءهم من حيث إنها منسوبة إليهم بتسميتهم آلهة وشركاء لله.

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

شرح المفردات

إن وليّيَ الله: إن متولي أمري وناصري هو الله.

العفو: السهل اليسير من أخلاق الناس.

بالعُرف: بالمعروف المستحسن من الأفعال، والعُرف ما حسنه شرع الله.

وأعرض عن الجاهلين: واترك مخالطة السفهاء وقابلهم بالحلم إذا سفهوا عليك.

ينزغـنّـك من الشيطان نزغ: وإن يُـغْـوِكَ الشيطان ويدفعك للشر بوساوسه.

فاستعذ بالله: فالجأ إلى الله واعتصم به ليعيذك من شره.

مسّهم طائف: أصابهم خاطر ووسوسة.

تذكروا: أي تذكروا أمر الله ونهيه وعداوة الشيطان لهم.

الغيّ: الضلال والفساد.

ثم لا يقصرون: أي ثم لا يكفّ هؤلاء الناس عن الغي بل يتمادون فيه.

الدعوة إلى مكارم الأخلاق والترفع عن وساوس الشيطان

وبعد أن بيّن القرآن عجز الأصنام عن إيصال النفع للمشركين أو دفع الضر عنهم، بيّن بعد ذلك بأن النصرة والمعونة قد خصّهما الله لرسوله محمد ﷺ وللمؤمنين.

﴿إِنَّ وَلِيِّـيَ اللَّـهُ الذي نَـزَّلَ الكِتَـابَ﴾ وليّ المرء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته ويمنع عنه الضرر، والكتاب هنا المراد به القرآن. والمعنى: قل يا محمد لقومك: إن نصيري ومعيني عليكم هو الله الذي نزّل القرآن عليّ بالحق ﴿وَهُـوَ يَتَـوَلَّـى الـصَّـالِحينَ﴾ وهو سبحانه يحفظ الصالحين من عباده وينصرهم ويحول بينهم وبين أعدائهم. والصلاح في اللغة هو خلاف الفساد وضدّه.

فالصالحون من عباد الله هم الذين أصلحوا أنفسهم مما طرأ عليهم من شر وفساد وتابوا إلى الله عما اقترفوه من ذنوب.

والصالحون هم الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون فيها.

وهم الذين يصلحون مجتمعهم من كل ما يطرأ عليه من فساد وظلم.

وهم الذين يصلحون ما بين الأفراد والجماعات من نزاعات وأحقاد.

وهم الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات من الأعمال التي أمرهم الله بها.

هذا هو مفهوم الصلاح في القرآن وقد ورد في ذلك عشرات الآيات القرآنية.

هذا الشطر من الآية ﴿وَهُـوَ يَتَـوَلَّـى الـصَّـالِحينَ﴾ استوحى منه الخليفة عمر ابن عبد العزيز سلوكه وتوجهاته نحو بنيه، فقد رُوي أنه ما كان يدّخر لأولاده شيئاً من المال فقيل له في ذلك فقال: ولدي إما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين، فإن كان من الصالحين فوليّه الله ومن كان الله له وليًّا فلا حاجة له إلى مالي. وإن كان من المجرمين فقد قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[1] [القصص: ١٧] ومن ردّه الله فلن أشتغل بإصلاح مهماته.

---

(١) ظهيراً: معيناً.

﴿والَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُم﴾ أي والأصنام التي تعبدونها ـ أيها المشركون ـ عاجزة عن نصرتكم ومدّ يد المعونة لكم في الشدائد والملمّات ﴿وَلا أَنْفُسَهُم يَنْصُرُونَ﴾ كما أنها عاجزة عن نصرة أنفسها فمن أحقّ بالعبادة؟ من ينصره الله أم من لا يستطيع أن ينصر نفسه وغيره؟ هذه الآية وإن تقدم ذكرها، كررها القرآن لمزيد من التأكيد وإظهارٍ لسخف عقول المشركين.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُم إِلَى الهُدَى لا يَسْمَعُوا﴾ وإن تطلبوا من أصنامكم أن يهدوكم إلى سبيل الرشاد لا يسمعوا دعاءكم ﴿وَتَرَاهُم يَنظُرونَ إِلَيْكَ وَهُم لا يُبْصِرُونَ﴾ وترى يا محمد آلهة المشركين يقابلونك بعيون وصورة كأنها ناظرة إليك، فقد كانوا يجعلون للأصنام أعيناً من جواهر فكانوا بذلك على هيئة الناظرين ولكن لا حياة فيها لأنها من جماد، فكيف تعبدون أيها المشركون هذه الآلهة التي لا تبصر فضلاً عن أنها لا تسمع؟ ومثل هذا ما قاله إبراهيم عليه السلام لأبيه الذي كان يعبد الأصنام ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان بعض مكارم الأخلاق التي يستحسن الأخذ بها:

﴿خُذِ العَفْوَ﴾ والأخذ حقيقته تناول الشيء وهو مجاز هنا عن القبول والرضا، والعفو: هو الصفح عن ذنب المذنب وعدم مؤاخذته بذنبه، والمراد العفو عن المشركين وعدم مؤاخذتهم بما أساءوا إلى رسول الله والمؤمنين. ويطلق العفو على السهل الذي لا كلفة فيه، أي ارضَ من الناس بما تيسّر من أخلاقهم ولا تستقص عليهم، ولا تكلفهم من الجهد ما يشق عليهم ويرهقهم حتى لا ينفروا مثل قبول الاعتذار والتساهل حيال ما يصدر منهم، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «بشّروا ولا تنفروا، يسّروا ولا تعسّروا»[1] ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ والعرف هو الاسم المرادف

(١) رواه مسلم وأبو داود.

للمعروف، وهو المستحسن من الأفعال التي تعرف العقول صوابه، وتطمئن إليه النفوس، ويوافق شرع الله، وهو خلاف المنكر الذي تنكره العقول لقبحه ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ والجاهلون هنا السفهاء الطائشون، أي أعرض عنهم ولا تعاشرهم ولا تنحدر إلى مستواهم، ولا تقابلهم بمثل سفههم وطيشهم عندما يصيبك الأذى منهم بل قابلهم بالحلم.

هذه الآية التي أمرت بالأمور الثلاثة قال عنها الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ ونزغ الشيطان: وساوسه، يقال نزغ الشيطان بين الناس: أفسد بينهم بحثّهم على الشرّ بداعية غضب أو شهوة من شهوات النفس.

وقد أخبرنا الله في القرآن بأن هناك في عالم الغيب شيطاناً لا تدركه حواسنا يتصل بنا ويقوّي دواعي الشر فينا وقد سماه الله: وسواساً، ونزغاً، ومسًّا، فمتى مالت أنفسنا إلى الشر أو إلى المعصية عالجنا ذلك بما أرشدنا الله إليه: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي الجأ إلى الله ليحميك من وساوس الشيطان وقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله سميع لما تقول، عليم بما تتوجه إليه من الأفعال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم فامتثلوا أوامره واجتنبوا ما نهى الله عنه من عادتهم أنهم إذا أصابهم خاطر من خواطر الشيطان أو وسوسة منه تُزَيِّن لهم المعصية تذكّروا مقام ربهم واستحضروا عظمته وجلاله ووعده بالثواب ووعيده بالعقاب. تأمل كلمة طائف فهي اسم فاعل من طاف بالشيء إذا دار حوله، وجعلت وسوسة الشيطان طائفاً للإيذان بأنها وإن مسّت المتقين فلا تؤثر فيهم فكأنها تطوف حولهم ولا تصل إليهم ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرون﴾ فإذا هم مبصرون بنور ربهم طريق الهدى، منتهون عن معصية الله، ممتنعون عن الاستجابة لوساوس الشيطان.

﴿وَإِخْوانُهُم يَمُدُّونَهُم في الغَيِّ﴾ وإخوان شياطين الجن من المشركين تزيدهم الشياطين في الضلال بالوسوسة والإغراء بالمعاصي ﴿ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يكفّون عن إضلالهم بل يستمرون على ذلك.



﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦) ﴾

شرح المفردات

لولا اجتبيتها: هلاّ اخترعتها واختلقتها من عند نفسك.

هذا بصائر: هذا القرآن حجج بيّنة تبصّركم وجه الحق.

فاستمعوا له: فاقصدوا سماعه ولا تُعرضوا عنه.

وأنصتوا: واسكتوا متأملين معناه.

تضرّعاً: متضرعاً له بخشوع متذلّلاً.

ودون الجهر من القول: الجهر رفع الصوت بإفراط وبما دونه مما هو أقل منه وهو الوسط بين الجهر والمخافتة.

والغدوّ: جمع غُدوة وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

الآصال: جمع أصيل وهو الوقت من بعد العصر إلى المغرب.

ولا تكن من الغافلين: أي لا تكن من الغافلين عن ذكر الله اللاهين عنه.

آداب قراءة القرآن وذكر اللَّه

ويتابع القرآن فيناقش المشركين في شأن نبوّة محمد التي ينكرونها، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي وإذا لم تأتهم يا محمد بآية من القرآن عند تراخي نزوله عليك أو طلبوا معجزة مما اقترحوه عليك قالوا: هلاّ اختلقت الآيات واخترعتها من عند نفسك ﴿قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَبِّي﴾ قل لهم يا محمد ليس لي أن أقترح شيئاً من المعجزات على ربي أو الإتيان بآيات القرآن من عند نفسي، بل أتبع ما يوحي الله إليّ من الآيات أُبلّغها لكم ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي هذا القرآن الذي تنزل عليّ آياته من عند ربي هو حججٌ بيّنة وبراهين نيّرة، تُبصرون به الحق وتدركون الصواب ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو هدى للناس إلى الطريق المستقيم ورحمة للذين يؤمنون به ويتبعون وصاياه.

ثم يأتي الخطاب للمؤمنين في شأن الاستماع عند تلاوة القرآن وعند ذكر الله:

﴿وَإِذَا قُرِئَ القُرآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ وإذا تُلي عليكم أيها المؤمنون القرآن فاصغوا إليه بأسماعكم وأنصتوا: أي فاسكتوا ولا تتكلموا تعظيماً له لتفهموا معانيه وتتدبّروا مواعظه ﴿لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ راجين بحسن الاستماع والإنصات إليه الفوز برحمة الله.

أما ما يفعله جماهير الناس في المحافل التي يقرأ فيها القرآن كالمآتم وغيرها من ترك الاستماع للقرآن والاشتغال بالأحاديث المختلفة فمكروه كراهة شديدة، وكذلك بدعة قراءة القرآن في المآذن والناس في أشغالهم وبيعهم ولهوهم لا يصغون إليه ولا يفهمون شيئاً لبعد المسافة وضجيج الميكروفونات، فعلى أئمة المساجد أن لا يسمحوا بذلك، ولا يجوز لقارىء القرآن أن يقرأ على قوم لا يستمعون إليه، كما تُكره قراءة

القرآن أثناء سير الجنازة جهراً لأنها بدعة وكذلك لا تجوز قراءة القرآن في المواضع القذرة كالحمامات وغيرها.

وتستحب قراءة القرآن بالترتيل والنغم الدالّ على التأثر والخشوع من غير تكلف ولا تطويل في المدود، وأن يستعيذ المؤمن قبل قراءة القرآن من الشيطان الرجيم، ويدعو الله في أثناء سماع الآيات بحسب معانيها كسؤال الرحمة عند ذكرها، والاستعاذة من العذاب عند ذكره.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أي اذكر ربك أيها المسلم في نفسك بينك وبين ربك لأن الإخفاء أصْفىٰ للنّفس، وأقرب إلى الإجابة وأبعد عن الرياء ﴿تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾ وأن يكون ذكرك على سبيل التضرع وهو التذلل والخضوع والخشوع له سبحانه، وأن يكون على وجه الخوف والخشية من سلطان ربوبية الله وعظمة ألوهيته ﴿ودُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ﴾ أي واذكر ربك بلسانك دون الجهر، والمراد بالجهر رفع الصوت بإفراط وبما دونه ما هو أقل منه وهو الوسط بين الجهر والمخافتة ﴿بالغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ وليكن ذكرك لله في الغدو: وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. والآصال: جمع أصيل وهو من العصر إلى غروب الشمس، والمراد بهما هنا جميع الأوقات حسبما يتيسّر للذاكرين ﴿وَلا تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ﴾ أي ولا تكن أيها المسلم من جملة الغافلين عن ذكر ربك بأن تترك ذكره سبحانه، فمن غفل عن ذكر الله مرض قلبه، وضعف إيمانه، واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسه، وقد جاء في القرآن: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

ويقول رسول الله محمد ﷺ: «مَثَلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مَثَلُ الحيّ والميت»[١] فذكر الله يُحيي القلوب بنوازع الخير ويُدخل الطمأنينة لها، ونسيان الله

---

(١) رواه البخاري.

يميت القلوب فَتَقْسو، ويتتابها القلق والأمراض النفسية، ولله در الشاعر إذ يقول مخاطباً ربه:

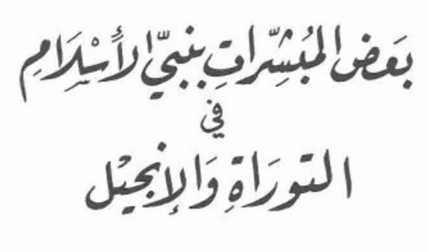
إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحياناً فننتكس

وتختتم هذه السورة بالكلام عن الملائكة، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ والمراد بهم الملائكة. وقال: عند ربك، لأنهم قريبون من رحمته وكل قريب من رحمة الله فهو عنده ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يتكبرون ولا يتعظمون عن عبادة ربهم بل يؤدونها وفق ما أُمروا بها كاملة وافية كما أمر الله ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ أي وينزهون الله عن كل ما لا يليق بجلاله على أبلغ وجه وأكمله ويخضعون له تعالى ويعبدونه.

فالملائكة وهم على طهارتهم وبعدهم عن عصيان الله لا يستكبرون عن عبادة الله فأحرى بالبشر المثقَلين بالخطايا أن يعبدوا الله ويخضعوا له ويسجدوا تشبهاً بالملائكة، ويطلبوا الغفران والرحمة منه بما قدمت أيديهم من آثام.

هذه الآية الأخيرة من هذه السورة طُلب فيها من المؤمنين أن يسجدوا لله عند تلاوتها أو سماعها، وهذه السجدة المعروفة عند الفقهاء بسجدة التلاوة هي سجدة بين تكبيرتين، تكبيرة لوضع الجبهة على الأرض وتكبيرة للرفع من السجود دون تشهد ولا تسليم، ويشترط لها ما يشترط للصلاة من الطهارة والنية واستقبال القبلة. وفي القرآن أربع عشرة آية أخرى على المؤمن أن يسجد عند تلاوتها أو سماعها. وسجود التلاوة سُنَّة للقارىء والمستمع عند أكثر الفقهاء، فمن سجد فله أجر ومن لم يسجد فلا إثم عليه. والحكمة من سجود التلاوة المسايرة لروح العبودية العامّ المنتظم في الكون وذلك ما ورد في سورة الرعد ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩﴾ [الرعد: ١٥].



بعض المبشرات بنبي الإسلام
في
التوراة والإنجيل

النصارى أقرب الملل مودة إلى الإسلام

في هذا البحث أريد أن أُثبت ما أعلنه القرآن من أن صفة النبي محمد ﷺ موجودة في التوراة والإنجيل، ولست أبتغي في هذا البحث الإساءة إلى أحد بل أريد الوصول إلى الحقيقة المجردة.

فقد أعلن القرآن أن النصارى هم أقرب الناس مودة للمسلمين قال تعالى: ﴿. . . وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً للذين آمنوا الَّذِينَ قَالوا إنَّا نصارى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُم قسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وأَنَّهُم لا يَسْتَكْبِرُون﴾ [المائدة: ٨٢].

كما دعا الإسلام إلى معاملتهم بالبرّ والعدل إذا كانوا مسالمين للمسلمين بموجب الآية الكريمة التالية: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عن الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم في الدِّين وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِنْ دِيارِكُم أن تَبَرُّوهم[1] وَتُقْسِطُوا إلَيْهِم إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمقسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

كما دعا القرآن إلى الإيمان بنبوّة عيسى عليه السلام وأن من ينكر نبوته من المسلمين فهو كافر.

وفي الأناجيل الحاضرة والقرآن الكريم من القِيَم الروحية والفضائل الخلقية ما يقدم أعظم الخير للإنسانية المعذبة التي عانت من الظلم والاضطهاد أجيالاً كثيرة.

هذا وإن الدين أنزله الله ليصلح بين البشر لا ليفرّق بينهم وهذا ما خاطب الله به

---

(١) تبرّوهم: البرّ في اللغة فعل كل خير والإكرام والصدق وفسّره النبي محمد ﷺ بقوله: البرّ حُسْنُ الخلُق.

المؤمنين بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ[1] وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى أن أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيه . . .﴾ [الشورى: ١٣] تأمّل كيف جمع الله في هذه الآية بين أنبياء الله: نوح ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ليؤكد الوحدة الرسالة الإلهية التي أتوا بها.

وإني في هذا البحث أمهد الطريق للحوار الصحيح بين الإسلام والمسيحية عن طريق الدعوة إلى الإيمان بنبوّة محمد، فكما أن المسلمين يؤمنون بنبوّة عيسى عليه السلام فإن النصارى بإيمانهم بنبوّة محمد عليه السلام يمكنهم أن يزيلوا الكثير من الحواجز التي تفصل بينهم وبين المسلمين مما يؤدي بهم إلى التقارب والتآلف والمحبة.

المبشّرات بنبوة محمد في التوراة والإنجيل

وقد كان اليهود والنصارى قبل الإسلام يتناقلون الحديث فيما بينهم عن قرب مجيء نبي ذي صفات معينة تنطبق صفاته على صفات النبي محمد ﷺ بالنسبة لما قرأوه في كتبهم المقدسة، فلما بعثه الله نبياً آمن به كثيرون وصدقوه كما جحد به آخرون.

وفي التوراة والإنجيل الكثير من المبشّرات بنبوة محمد لو استعرضناها جميعاً لاحتاج الأمر إلى سِفْر كبير ولكني هنا سأقتصر على بعضها.

والناظر في نصوص التوراة والأناجيل المعتمدة عند النصارى يجد اختلافاً في الترجمات بعضها عن بعض مما يجعل الباحث يلاقي مشقة عند الاستشهاد بها إضافة إلى اختلاف تفسيرها.

وهذه بعض المبشّرات في التوراة والإنجيل في شأن نبوة محمد ﷺ والتي أشار

(١) أوحينا إليك: هو النبي محمد ﷺ الذي أوحى الله إليه.

إليها القرآن بقوله ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهم في التَّوْرَاةِ وَالإنجيلِ. . .﴾ [الأعراف: ١٥٧].

موسى يعلن عن مجيء نبيّ من ذُرّية إسماعيل

جاء في الأصحاح الثامن عشر من تثنية الاشتراع من التوراة:

(١٧) فقال لي الرَّبّ: قد أَحْسَنوا فيمَا قالوا (١٨) سَأُقيمُ لَهم نبياً من وَسْطِ إِخوتهم مِثْلَكَ وأَجْعَلُ كلامي في فَمِهِ، فيخاطبهم بِكُلِّ ما آمُرُه بِهِ (١٩) وأيُّ رَجُل لم يَسْمَع كلامي الذي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمي فَإِنّي أُحاسِبُه عليه (٢٠) ولكن أيُّ نبيٍّ اعتدَّ بنفسه فَقَال باسمي قَوْلاً لم آمُرْه أن يقوله، أو تَكَلَّمَ بِاسْمِ آلِهةٍ أُخْرَى فَلْيُقْتَلْ ذَلِكَ النبيّ (٢١) فَإِن قُلتَ في قلبك كيف نَعرفُ القَولَ الذي لم يَقُله الربّ (٢٢) فإن تكلم النبيُّ باسمِ الرَّبِّ ولم يَتِمَّ كَلامُه ولم يَحدُثْ، فَذَلِكَ الكلامُ لم يتكلَّم بِهِ الرَّبّ بل لِلاعتدادِ بِنَفْسِه تَكلَّم بِهِ النبيُّ فلا تَهَبْه.

هذا النص جاء على لسان موسى عليه السلام بمجيء نبيّ، وأنَّ هذا النبي لن يكون من بني إسرائيل[١] وإنما من إخوتهم. فمن المسلّم به أن إسماعيل عليه السلام هو أخو إسحاق عليه السلام وهما ولدا إبراهيم عليه السلام، وأن بني إسرائيل من نسل إسحاق، وأن محمداً ﷺ من نسْل إسماعيل وولده قيدار (عدنان) وهو الجد الأعلى للعرب. وعلى هذا يتعيّن استبعاد جميع أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا بعد موسى عليه السلام من مظنّة أن يكون أحدهم هو المقصود بهذه البشارة.

---

(١) يقول اليهود: إلى الآن لم يظهر هذا النبي وإذا ظهر سيكون من بني إسرائيل، ويقول النصارى إن ذلك النبي هو عيسى وقد جاء ولا نبي من بعده، ونقول نحن المسلمين إن ذلك النبي الموعود هو محمد نبي الإسلام.

ولو كان المقصود نبياً من بني إسرائيل لقال موسى: نبياً من أنفسهم ولكنه قال: «أُقيم لهم نبياً وسط إخوتهم»[١] أي من نسْل إسماعيل.

وقد جاء في الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين: (٢٠) وَأَمَّا إسماعيلُ فقد سمعتُ قولك فيه وَهاءنذا أُبارِكُه وأُنْميه وأُكثِّرُهُ جدًّا جدًّا وَيلدُ اثني عشر رئيساً وأجعَلُهُ أُمَّةً عظيمة.

فالنص صريح على أن إسماعيل قد حصل على البركة من الله وأنه سيكون من نسْله أنبياء.

وجاء في هذه البشارة لفظ (مثلك) أي أن هذا النبي سيكون مثل موسى عليه السلام وهنا تأكيد على أن النبي المقصود هو محمد ﷺ.

فموسى صاحب كتاب وشريعة، ومحمد مثل موسى صاحب كتاب وشريعة، ولم يكن عيسى عليه السلام إلاَّ نبياً منفذاً للناموس فقد قال كما جاء في كتب النصارى: (١٧) لا تظنوا أَنّي جئتُ لأُبْطِلَ الشَّريعَةَ أو الأنبياء. ما جئتُ لأُبْطِلَ، بل لأُكْمِل [متى ٥ : ١٧].

ومحمد مثل موسى، فقد وُلد موسى من أبٍ وَأُمٍّ بطريقة زواج طبيعية وكذلك محمد ﷺ بينما عيسى ولد من مريم العذراء فقط.

وتزوج موسى ومحمد عليهما السلام ولكن عيسى عليه السلام لم يتزوج طيلة حياته.

وموسى ومحمد حاربا من أجل الحق ولم يحارب عيسى أعداء الله.

وجاء في هذه البشارة لفظ (وأُلقي كلامي في فِيهِ) وهو إشارة إلى أن ذلك النبي

---

(١) جاء في الأصحاح السادس عشر من سفر التكوين: (١١) وقال لها ملاكُ الرب ها أنت حَامِلٌ وستلدين ابناً وتسمّينه إسماعيل لأن الرب قد سمع صوت شقائك (١٢) ويكون رَجُلاً وحشياً يده على الكل ويد الكل عليه وأمام جميع إخوته يسكن.

ينزل عليه الكتاب وحياً من عند الله وإلى أنه يكون أُمّـيًّا لا يُباشر الكتابة بل يكون حافِظاً للكلام الإلهي ويتلو ما يمليه الله عليه.

وقد ثبت أن محمداً كان أُمِّـيًّا ولـمّـا بلغ من العمر أربعين عاماً وكان يتعبد في غار حراء جاءه الملك جبريل وأمره قائلاً (اقرأ) فقال محمد ما أنا بقارىء فكرر جبريل عليه (اقرأ) وكان الجواب (ما أنا بقارىء) أي لا أحسن القراءة لأني أميّ ثم نزل عليه الوحي من الله بواسطة الملك جبريل وظل الوحي ينزل عليه ثلاثاً وعشرين سنة فكان النبي محمد ﷺ يتلو ما أُنزل عليه من الوحي على أتباعه ويدوّنه كتبة الوحي. بينما كان عيسى قارئاً وكاتباً كما نصت الأناجيل على ذلك.

وجاء في هذه البشارة: «وأي رجل لم يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه» وقد فسر عيسى عليه السلام: «فإني أحاسبه عليه» بالعذاب الشديد لمن لا يسمع ويطيع لذلك النبي الآتي إلى العالم. وقد جاء في الأصحاح الثالث من أعمال الرسل: (٢٣) «ومن لم يستمع لذلك النبي يُستأصل من بين الشعب». وهذا ينطبق على نبي الإسلام وحده لأن عيسى قال: «أنا لست أطلب مجدي. يوجد من يطلب ويدين» [يوحنا ٨: ٥]. ولأنه دفع الجزية للرومان [متى ١٧ : ٢٧] وقال بصريح العبارة: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه» [مرقس ١٢ : ١٧].

أما نبي الإسلام فحارب اليهود الذين خانوه وطردهم من جزيرة العرب التي قدموا إليها، وفي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قام بفتح بلاد الشام واستولى عليها وقضى على دولة الروم فيها.

كما جاء في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره به أو يدعو الناس إلى إلّه غيره يكون جزاؤه من الله القتل. ولنسأل: هل قُتِلَ نبي الإسلام أو هل قتل عيسى عليه السلام؟ فإذا نظرنا في القرآن نجد أنه يصرح بأنهما لم يُقتلا، ونجد الإنجيل الذي بين أيديهم يصرِّح بقتل عيسى، فعلى ما كتبوا في الإنجيل لا يكون ذلك النبي هو عيسى عليه السلام.

فلو لم يكن محمد نبيًا حقاً وصدقاً لكان قُتل، وقد جاء في القرآن في شأن محمد ﷺ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل . لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ـ٤٦]. والمعنى: لو افترى محمد على الله كذباً وادّعى بما لم يتلقه من الله لكان جزاؤه القتل بقطع عنقه.

ولكن القرآن أثبت صدق محمد وأعلن بأن الله سيحفظه ويرعاه: ﴿. . . واللَّهُ يَعْصِمكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقد تحقق وعد الله ولم يقدر أحد على قتله رغم بعض المحاولات في ذلك ومات ميتة طبيعية.

وبيّنت البشرى بأن علامة النبي الكاذب هي إخباره عن أمور الغيب بما لم يتحقق، ومحمد أخبر عن كثير من الأمور الغيبية التي تحققت جميعها. منها: وعد أصحابه بالنصر على أعدائهم كما جاء في القرآن ﴿وَعَدَ اللَّهُ الّذِين آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأرضِ كمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلهم. . .﴾ [النور: ٥٥]، ﴿قُلْ لِلّذِينَ كَفَروا سَتُغْلَبُون. .﴾ [آل عمران: ١٢].

وقد تحقق ما أخبر به القرآن وتم النصر للمؤمنين على الكافرين، ولولا خوف التطويل لذكرنا الكثير من الأمور الغيبية التي أخبر عنها القرآن وتحققت كلها.

موسى يتنبأ بِنَبيٍّ يبعثه اللَّهُ من مكة

وجاء في الأصحاح الثالث والثلاثين من تثنية الاشتراع:

(١) وهذه هي البَرَكَةُ التي بارك بها موسى رَجُلُ اللَّهِ بني إسرائيل قَبْلَ مَوْتِهِ (٢) فقال: أقبلَ الرَّبُّ مِنْ سيناء وأشْرَقَ لهم مِنْ سِعير وتجلّى من جبل فَاران وأتى من رُبى القُدْسِ[1] وعن يمينه قَبَسُ شَريعَةٍ لَهُم.

(١) رب القدس وترجمت من ربوات القدس وربوات هي الجماعات الكثيرة. والقدس هنا هي الملائكة =

فقوله (أقبل الـرَّبُّ مِن سيناء) إشارة إلى أول شريعة لبني إسرائيل على يد موسى عليه السلام حيث أنزلت عليه التوراة في جبل الطور في صحراء سيناء. وقوله: (وأشرق لهم من سِعِير) وسعير هو جبل يقع إلى الجنوب والشرق من البحر الميت وجبل سعير هو مكان سكنى بني هارون الذين هم فَرْعٌ من بني لاوَى، والرمز بجبل سعير إشارة إلى العلماء والأنبياء من بني إسرائيل الذين كانوا من بعد موسى ومنهم عيسى عليه السلام فإنه من نسْل هارون من سِبْط لاوى، فَإشراقه من سعير إشارة إلى ظهور عيسى عليه السلام حيث أعطاه الله الإنجيل فيه هدى ونور وقوله: (وَتَجلَّى من جَبَلِ فَاران) وفاران هي من أسماء مكة المكرمة التي سَكَنَ فيها إسماعيل عليه السلام. والتوراة تذكر أن إبراهيم عليه السلام قد أسكن زوجه هاجر وابنهما إسماعيل فاران. وقد جاء في الأصحاح ٢١ من سفر التكوين عن إسماعيل: (٢١) وأقام بِـبـرِّيـةِ فَاران، واتّخذت له أُمُّهُ امرأةً من أرضِ مِصْر.

وفي ذكر فاران إشارة إلى شريعة من الله تنزل على نبي من آل إسماعيل عليه السلام، وهذا النبي الذي جاء من آل إسماعيل ومن نسله هو النبي محمد ﷺ ولم يأت من نسْل إسماعيل نبيٌّ غيره. فمحمد يرجع نسبه إلى إسماعيل عليه السلام الذي استقر في قفار فاران (أي مكة) وهو النبي الذي تقبّل العرب ما جاء به من الهدى من عند ربه عندما كان الظلام يلف أرجاء الأرض ومن خلاله شَـعَّ النور الإلهي في فاران.

ثم إن هناك نبوءة جاء بها حبقوق النبي وهي جديرة بالملاحظة.

فقد جاء في الأصحاح الثالث من سفر حبقوق من العهد القديم: (٣) الله يأتي من تَيمان والقدُّوسُ من جَبَلِ فاران. غَطَّى جلالُه السَّماوات وامتلأَتِ الأَرْضُ من تَسْبِحَتِهِ (وهناك ترجمة: من تسبيحه).

= وليس المراد بالملائكة الملائكة الحقيقيين بل المراد قوم شبيهون بالملائكة في الطهر والصلاح على سبيل المجاز. وهؤلاء الجماعات الشبيهون بالملائكة هم صحابة رسول الله محمد ﷺ.

إن هذه النبوءة التي قالها حبقوق[1] إنما تشير إلى مكة المكرمة. فقوله: «الله جاء من تيمان» تُشير إلى بلد في جنوب شرقي تبوك قريب من المدينة المنورة. وقوله «القُدُّوس من جبل فَاران» إنما هو إشارة إلى مكة المكرمة، وحينما يقول: «غَطَّى جَلالُه السماوات» فإنه يرمز إلى نداء «الله أكبر» الذي يتردد في الآفاق على لسان المؤذنين في كل الأراضي التي يسكنها المسلمون، إنه جلال الله الذي يغطي السماوات والأرض، وهذا لا يمكن أن يكون المقصود به كنيس اليهود الذي يستخدم البوق، ولا كنيسة النصارى التي تستخدم الجرس.

عيسى يبشر بنبي بعده اسمه أحمد

جاء في الأصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا:

(١٥) إن كنتم تُحبُّوني فاحفظوا وَصَايايَ (١٦) وأنَا أسْأَلُ الآب فيعطيكم معزِّياً آخر ليقيم معكم إلى الأبد.

إن كلمة (المعزّي) الواردة بهذا النص مترجمة عن الأصل اليوناني لإنجيل يوحنا بلفظ (Periglytos) كما أن مترجمي العربية للإنجيل قديماً احتفظوا بالأصل اليوناني ونقلوه بلفظ (فارقليط)[2]، كما جاء في ترجمة لندن سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٨٤م.

فإنجيل يوحنا كتب باللغة اليونانية وليس بالآرامية التي كانت اللغة الوطنية لعيسى عليه السلام.

إن الكلمة اليونانية التي ترادف المعزى ليست (باراكليتوس) بل (باراكالون ـ Paracalon).

---

(١) لم يرد اسم حبقوق النبي في القرآن الكريم ولا يمنع ذلك من كونه نبياً، لأن الله خاطب رسوله محمداً في شأن الأنبياء فقال: ﴿مِنهُم من قصصنا عَلَيْكَ وَمِنْهُم من لم نقصصْ عليك﴾ [غافر: ٧٨].

(٢) فسّر علماء اللاهوت المسيحيون الفارقليط بأنه الروح القدس أحد الأقانيم الثلاثة.

وكلمة (باراكليتوس) تعني من الناحية اللغوية: الأمجد، والأشهر، والمستحق للمديح[١] وهذا ما يعنيه بالضبط اسم أحمد باللغة العربية، وأحمد هو من أسماء نبي الإسلام.

واللفظ العبري الذي نطق به عيسى عليه السلام كما ذكر الأب متى (البيراقليط) فلو ترجم إلى اليونانية ستكون الترجمة (بيركليتوس) وهذه اللفظة تدل على الحمد.

وقد جاء في القرآن على لسان عيسى عليه السلام مبشراً بنبي الإسلام: **﴿وإذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مريمَ يا بني إسرائيلَ إنّي رَسُولُ اللَّهِ إليكم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأتي مِنْ بَعْدي اْسْمُهُ أحمد﴾** [الصف: ٦].

أما قول السيد المسيح عن (الفارقليط) بأنه (ليقيم معكم إلى الأبد) أي تظل شريعته إلى يوم القيامة، فهذا الوصف متحقق في نبي الإسلام لأنه أعلن أنه خاتم الأنبياء، وإلى الآن لم يظهر ما يكذب ما أعلنه.

وجاء في الأصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا:

(٧) إلاَّ أنّي أقولُ لَكُمُ الحَقَّ إنّ في انطلاقي خيراً لكم لأَني إن لَمْ أنطلق لم يَأْتِكُمُ الـمُعَـزِّي ولكن إذا مَضَيْتُ أرْسَلْتُـهُ إليكم (٨) وَمَتَى جَـاءَ يُبَكِّتُ العَالَـمَ عَلَى الخطيئةِ وعلى البِرِّ وَعَلى الدَّيْنُونَةِ (٩) أَمَّا على الخطيئةِ فَلأنَّهم لَمْ يُؤْمنوا بي (١٠) وأمّا عَلَى البِرِّ فَلأنّي مُنْطَلِقٌ إلى الآبِ ولا تَرَوْني بَعْدُ (١١) وأمّا على الدّيْنونَةِ فلأنَّ رئيسَ هَذَا العَالَمِ قَدْ دِينَ (١٢) وإنَّ عندي كثيراً أَقُولُـهُ لَـكُم ولَـكِـنَّـكُم لا تُطيقون حَمْلَهُ الآنَ (١٣) ولكن متى جاء ذَاكَ رُوحُ الحق فهو يُـرْشِدُكُم إلى جميع الحقِّ لأنه لا يتكلَّم

---

(١) ففي قاموس الإسكندر الإغريقي ـ الفرنسي يفسر كلمة Periqleitos فيقول:
Periqleitos : très célèbre, illustre, glorieux؛ أي الأمجد والأشهر والمستحق للمديح.

مِن عِنْدِهِ بل يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ وَيُخبِرُكُم بما يأتي (١٤) هو يمجدني لأنه يأخذ مِمَّا لي ويخبركم.

هذا النص فيه تبشير بنبوة محمد الذي يتراءى لنا في الأمور الآتية:

ففي قول السيد المسيح (إنّ في انطلاقي خيراً لكم لأني إنْ لَمْ أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّى) فقد علق عيسى عليه السلام مجيء الفارقليط بذهابه، ومحمد ﷺ كان كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام.

وفي قوله: (ومتى جاء يبكّت[1] العالم على الخطيئة) وهذا ينطبق على نبي الإسلام فقد وبّخ اليهود على تحريفهم لكتاب الله وتركهم لتعاليمه وعلى عدم إيمانهم بنبوّة عيسى ووبخ النصارى على نسبة الألوهية لعيسى ووبخ الكفار لعبادتهم الأصنام من دون الله.

وأما قوله: (وأما على الدَّينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دِينَ) ورئيس هذا العالم حسب المفهوم الإنجيلي هو الشيطان، ومن يقرأ القرآن لا يجد إدانة للشيطان أكثر مما أدانه وحذر منه.

وأما قوله: (لا يتكلم مِنْ عِندِه بَلْ يَتَكَلَّم بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ) وهذا الوصف ينطبق على نبيّ الإسلام إذ كان لا يقرأ ولا يكتب وكان يبلّغ رسالته وكلام الله إلى قومه عن طريق ما يسمعه من الوحي الإلهي بواسطة الملك جبريل عليه السلام.

وفي قوله: (ويخبركم بأمور آتية) أي يخبرهم بأمور غيبية ستقع وهذا ما نراه في القرآن بما أخبر عن أمور غيبية وقعت لو أردنا الاستشهاد بها لاستلزم الكثير من الصفحات. نذكر أحدها وهي ما أخبر عنه من أن النصر سيكون لدولة الروم بعد

---

(١) يبكت؛ يوبخ.

هزيمتهم من الفرس في بضع سنين وهذا ما تحقق فعلاً. جاء في القرآن: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبونَ في بِضْعِ سِنينَ. . .﴾ [الروم: ١].

وفي قوله (ذاك يمجّدني) أي أنه يُعظِّم عيسى عليه السلام ويعترف بفضله وهذا الوصف ينطبق على نبي الإسلام فقد دعا إلى الإيمان بعيسى عليه السلام وبيّن أنه رسول كريم من عند الله وذكر ما خصه الله من معجزات ومجّده بما لم يمجّد به رسول قبله ويكفينا ما جاء في القرآن في حقه: ﴿إِذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المسيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجيهاً في الدُّنْيَا والآخِرةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦].

وفي قوله: (ولكن متى جَاءَ ذَاكَ رُوحُ الحق فهو يُرْشِدكُم إلى جميع الحقِّ) وهذا ينطبق على نبيّ الإسلام الذي أرشد الناس كافة إلى جميع الحق الذي جاء به من عند الله. وإذا قيل: كيف يُقال لنبي الإسلام روح الحق وهو إنسان؟ الجواب على ذلك ما ورد في رسالة يوحنا الأصحاح الرابع:

«(١) أيها الأحبَّاء لا تَركُنوا إلى كُلِّ رُوح بل اختبروا الأرواحَ لِتَرَوا هل هي من عِنْدِ الله لأن كثيراً من الأنبياء الكذَّابين انتشروا في العالم (٢) وَمَا تَعْرِفُون بِهِ رُوحَ اللَّهِ هُوَ أَنَّ كُلَّ رُوحٍ يَشْهَدُ لِيَسوعَ المسيح الذي جاء في الجَسَدِ كَانَ مِنَ اللَّهِ وكُلَّ رُوحٍ لا يَشْهَدُ لِيَسوع لم يكن مِنَ اللَّه. .».

فهذه إشارة من السيد المسيح إلى أن روح الحق الموعود به يعترف بالمسيح أن الله أوجده بكلمة منه في جسد السيدة مريم بدون أب وأنه أرسله رسولاً منه إلى بني إسرائيل، ولا تَصْدُقُ هذه الإشارة إلا على نبيّ الإسلام فإنه أقرَّ بمجيء المسيح رسولاً من عند الله وبرَّأه هو ووالدته من افتراءات اليهود؛ وجاء في القرآن: ﴿. . . إِنَّما

المسيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ. . .﴾ [النساء: ١٧١].

وجاء في الأصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا:

«(٢٦) ومتى جاء المعزِّي الذي أُرسله إليكم من عند الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق فهو يشهد لي (٢٧) وأنتم تَشهدون لأنكم معي مُنذُ الابتداء».

وهذه علامة نطق بها عيسى عليه السلام ليعرف بها صدق نبي الإسلام على معنى: إن شهد بفضل عيسى ونبوّته كان صادقاً وإن جاء ولم يشهد بنبوّة عيسى ولم يعترف بفضله يكون كاذباً، وأنتم أيها التلاميذ ومن يأتي بعدكم تشهدون معه بنبوتي وإني كنت بشراً كسائر البشر لأني أخبرتكم حين كنتم معي أول الأمر.

وقد شهد محمد بنبوة عيسى عليه السلام فقد جاء في القرآن: ﴿ما المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلاّ رَسُولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ. . .﴾ [المائدة: ٧٥].

الأنبياء الصادقون من ثمارهم تعرفونهم

وجاء في الأصحاح ٧ من إنجيل متى:

(١٥) إيّاكم والأنبياءَ الكذّابين فَإِنَّهم يأتونكم في لِباسِ الخِرافِ وَهُم في باطنهم ذِئابٌ خاطفة (١٦) من ثِمارِهم تَعْرِفونَهم أَيُجْنَى من الشَّوْكِ عِنَبٌ أو من العُلَّيقِ تين (١٧) كذلك كل شَجَرةٍ طيبةٍ تُثمرُ ثِماراً طيّبة والشَّجَرةُ الخبيثةُ تُثْمِرُ ثِماراً خَبيثة (١٨) فليس للشجرة الطيِّبَةِ أن تُثْمِرَ ثِماراً خَبيثة ولا للشجرة الخبيثة أن تُثمر ثِماراً طيِّبة (١٩) وكل شجرة لا تثمر ثمراً طيّباً تُقطع وتُلقى في النار (٢٠) فَمِن ثِمارِهم تَعْرِفونَهم.

لم يقل السيد المسيح احترزوا من الأنبياء فيكون التقرير قاطعاً بأنه لم يعد هناك أنبياء بعده، بل حذّر من الأنبياء الكذابين، ومفهوم ذلك بأن هناك أنبياء صادقين،

ويعرف الفرق بين النبي الصادق والكاذب من ثمارهما، فيظهر الجيد من الرديء والصحيح من الزائف.

فلننظر بتجرد إلى ما جاء به محمد للإسلام من إصلاحات فهل هي من علامات الأنبياء الكاذبين أم من علامات الأنبياء الصادقين؟

فمحمد وحّد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل متفرقة يحارب بعضها بعضاً.

ومحمد قضى على وثنية متوارثة في بلاد العرب منذ آماد طويلة وأحل محلها ديناً يعبد الله وحده.

ومحمد أحدث إصلاحاً اجتماعياً حول أخلاق العرب من جاهلية متخلفة وما تشتمل عليه من ضياع حقوق المستضعفين لحقهم إلى تحقيق العدالة الاجتماعية وإنصاف المظلوم من الظالم.

ومحمد جاء بدين يشتمل على الأخلاق الفاضلة والعبادات الجامعة بين مطالب الروح والجسد التي ترقي الروح وتصل الإنسان بخالقه.

ومن الوصايا الجامعة في القرآن من ضمن مئات الوصايا:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

أما بشأن ما جاء في القرآن من الأخلاق فقد قال الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون: «إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها»[1].

---

(١) حضارة العرب، نقلاً عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص ٤٥٤.

وقال: «إن محمداً أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك لا نرى حداً لفضل محمد على العرب»[١].

هل بعد ذلك كله يمكن أن يَشكّ أحدٌ بنبوة محمد ﷺ التي أكدها السيد المسيح عليه السلام بقوله: «فمن ثمارهم تعرفونهم»؟

هذا وقد جاء في سفر أعمال الرسل: (إن كان هذا الرأي أو هذا العمل من الناس فسوف ينتقض، وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه) [٥: ٣٨، ٣٩]. ودعوة محمد لم تنتقض لأنها من عند الله.

ملكوت السماوات هو دين الإسلام

ومن البشارات على مجيء النبي محمد بدين الإسلام ما جاء في الأصحاح الرابع من إنجيل متى:

«(١٧) وبدأ يسوع من ذلك الحين ينادي فيقول: توبوا قد اقترب ملكوت السماوات».

وجاء في الأصحاح الثالث من إنجيل متى:

(١) في تلك الأيام ظهر يوحنا المعمدان يُنادي في برية اليهودية فيقول: «توبوا قد اقترب ملكوت السَّمٰاوات».

ولكن ما المراد بملكوت السماوات؟ ملكوت السماوات تعبير ورد في التوراة والإنجيل للدلالة على حُكْمِ الله في الأرض تمييزاً لجماعة المؤمنين بالله والعاملين بشريعته عن جماعة الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ويحكمون أنفسهم بقوانين وضعية تنافي الأحكام الإلهية.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

والذي أطلق اسم ملكوت السماوات على حكم الله في الأرض هو النبي دانيال أثناء سبي بني إسرائيل في بابل، ذلك أن ملك بابل واسمه نبوخذ نصر ـ وكان وثنياً ـ رأى في الليل أحلاماً أفزعته وطلب تفسيرها من المجوس والسحرة والعرافين والكلدانيين فعجزوا عن تفسيرها، حينئذ تقدم النبي دانيال وفسرها للملك، ومما أخبر به أنه ستأتي أمم إثر أمم وأنه ستنشأ على الأرض أربع ممالك[١] وفي نهاية المملكة الرابعة يؤسس ملكوت السماوات، وإجماع المفسرين من النصارى نقلاً عن اليهود أن المملكة الرابعة هي الدولة الرومانية.

والتاريخ ينبىء أن الذي أزال سلطان روما نهائياً هو نبي الإسلام فيكون هو المقصود بملكوت السماوات في عبارات النبي دانيال الذي قال: «وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إلّه السماوات مملكة لن تنقرض أبداً، وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد» [دانيال ٢ : ٤٤].

ولكن ما الذي يقوله النصارى في ملكوت السماوات؟ إنهم يقولون إنه ملكوت عيسى ابن مريم عليه السلام، وإنه ملكوت روحي على قلوب من يؤمنون به بمعنى أن كل من يؤمن بالإنجيل فهو تحت سلطان الولاء الأدبي لعيسى وهو يبدأ من مجيء عيسى بالدعوة إلى زمان رفعه إلى السماء ثم يأتي عيسى ثانية في نهاية الزمان ليكمل هذا الملكوت في السماء.

ولكن نرد عليهم بأن إشارات دانيال عن هذا الملكوت تشير إلى أنه أرضي لشبهه بالممالك الأرضية الأربع التي فسرها دانيال لحلم نبوخذ نصر.

وإنهم يقولون: إن المسيا[٢] صاحب الملكوت سيكون من ذرية داود، وإن

---

(١) وهذه الممالك الأربع هي: مملكة بابل، ومملكة فارس، ومملكة اليونانيين، ومملكة الروم.

(٢) المسيا؛ هو لقب أطلقه بنو إسرائيل على أنبيائهم وعلمائهم وملوكهم وهذا النبي الملقب بالمسيا سيظهر في بني إسرائيل كما يـدّعـون، كمـا أُطلق اسم المَسيَّا على المسيح.

عيسى هو المسيا «وسيعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ويملك على آل يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه انقضاء» [لوقا: ٣٢، ٣٣] فيلزم على هذا القول أن يكون ملك عيسى ملكاً أرضياً لا روحياً، لأن ملك داود في الزمن القديم كان ملكاً أرضياً.

وإن الأمثال التي مثلها عيسى في الأناجيل عن ملكوت السماوات تشير إلى ملك أرضي من حيث الأرض والزرع وسلوك الناس والشريعة الإلهية، ففي نهاية أحد الأمثال عن ملكوت السماوات يقول عيسى لعلماء بني إسرائيل: «إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تَصْنَعُ ثَمَرَهُ» [متى ٢١: ٤٣].

وتلاميذ المسيح كانوا يفهمون أن الملكوت أرضي ولذلك سألوه بعد قيامته من الأموات وظهوره على الأرض: هل في هذا الوقت تردّ الملك إلى إسرائيل؟ [أعمال ١: ٦].

وإذا كان الملكوت هو عصر الإنجيل وقد وعظ وبشّر به عيسى مع بدء نبوته فلماذا يعبّر عنه بلفظ «قد اقترب ملكوت السماوات»؟

إن ما نادى به يوحنا المعمدان وعيسى ابن مريم: «توبوا قد اقترب ملكوت السماوات» هو ملكوت نبي الإسلام الذي قوامه الإيمان بإله واحد والتصديق بما جاء به الرسل من عند الله ويشتمل على شريعة كاملة تصلح لكل زمان ومكان. وإن المسيح (أي المَسِيّا) الذي كان اليهود يتوقعونه لم يكن يهودياً ولا من سلالة داود بل كان من نسل إسماعيل الذي بشّر به عيسى عليه السلام واسمه أحمد الذي سيقيم مملكة الله على الأرض كما تنبأ بذلك النبي دانيال والتي تحققت على عهده وعلى عهد صحابته الكرام.

يوحنا المعمدان يعلن عن نبيٍّ قويّ

كان يوحنا المعمدان[١] حسب روايات الأناجيل الأربعة هو ابن خالة عيسى عليه السلام، وكان معاصراً له ولم يزد عمره عن عمر عيسى أكثر من ستة أشهر وكان من هذه الإنجازات العظيمة ليوحنا المعمدان أن عيسى عليه السلام تعمّد على يد هذا النبي كأي واحد آخر.

وثمة إشارة غامضة في الأسئلة التي وجهت إلى يوحنا المعمدان كما جاء في الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا إذ أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ (٢٠) فاعترف ولم يُنكِر، اِعترف: لستُ المسيح (٢١) فسألوه: من أنت إذاً؟ أأنتَ إيليّا، قال لستُ إيّاهُ، أأنت النبيّ؟ أجاب: لا (٢٢) فقالوا له: من أنت فَنَحمِلَ الجواب إلى الّذين أرسلونا؟ ماذا تقولُ في نَفْسِك (٢٣) قال: أنا صوتُ مُنادٍ في البرِّيَّة قَوِّموا طريقَ الرب كما قال النبي أَشعيا (٢٤) وكان المُرسَلُونَ من الفَرِّيسيِّين (٢٥) فَسألوه أيضاً: إذا لم تكن المسيح ولا إيليّا ولا النبي فَلِمَ تُعمِّد إذاً؟ (٢٦) أجابهم يُوحَنا: أنا أُعَمِّدُ في الماء وبينكم من لا تعرفونه (٢٧) ذلك الآتي بعدي، من لستُ أَهلاً لأن أُفُكَّ رِبَاطَ حذائه... (٢٩) وفي الغد رأى يسوعَ آتياً نحوه فقال: هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطيئة العالم (٣٠) هذا الذي قلت فيه يأتي بعدي رجل قد تَقَدَّمني لأنه كان قبلي (٣١) وَأنا لم أكُن أعرفُه ولكني ما جئت أُعَمِّدُ في الماء إلاَّ لكي يَظهَرَ أمْرُه لإسرائيل».

وهناك سؤال: ماذا يعني أولئك الكهنة بقولهم ليوحنا: أأنت النبي؟ كل المفسرين النصارى يظهرون عيسى وكأنه موضوع شهادة يوحنا المعمدان ونبوءته والتي نص عليها إنجيل يوحنا. ولكن كلمة يوحنا المعمدان (هو الذي يأتي بعدي) تستبعد عيسى بكل

---

(١) يوحنا المعمدان أطلق عليه القرآن اسم يحيى.

وضوح من أن يكون هو النبي المبشر به لأن عيسى ويوحنا ولدا في سنة واحدة وعاصر أحدهما الآخر، وكلمة (يأتي بعدي) تدل على مستقبل غير معلوم، وبلغة النبوة فهي تعبر عن دورة أو أكثر من دورات الزمن التي تقدر بنحو خمسة قرون أو أكثر حيث يظهر نبي يؤدي رسالة الله إلى قومه.

والعبارة الواردة في إنجيل يوحنا التي قالها المعمدان عن عيسى «وأنا لم أكن أعرفه» تنقضها صلة القرابة بين المعمدان وعيسى عليه السلام.

هذا وإن الأناجيل الثلاثة: لوقا، ومتى، ومرقس، اتفقت شهادتها على أن المعمدان لم يصرّح بأنه قصد عيسى بشهادته، وشهادة هؤلاء الثلاثة أقوى من شهادة الواحد وهي الشهادة التي رواها إنجيل يوحنا وقصد بها عيسى.

وإليكم ما جاء في هذه الأناجيل الثلاثة:

جاء في الأصحاح الثالث من إنجيل متى:

(١١) أنَا أُعمِّدُكم بالماءِ للتَّوبة وأمَّا الذي يأتي بَعْدي فهو أقوى مني وأنا لا أستحق أن أَحْمِلَ حِذَاءَهُ وهو يُعَمِّدُكُم بالرُّوح القُدُسِ وَالنَّارِ.

وجاء في الأصحاح الأول من إنجيل مرقس:

(٤) كان يُوحَنّا يُعَمِّدُ في البَرِّيَّةِ ويَكْرِزُ بمعْمُوديَّةِ التَّوْبَةِ لِغُفْران الخطايا... وَكَانَ يكرزُ[١] قائلاً (٧) إنَّهُ يأتي بَعْدي مَنْ هُوَ أقوى منّي وأنا لا أستحق أن أنحني وَأَحُلَّ سَيْر[٢] حذائه (٨) أَنا عَمَّدتُكُم بالماءِ وأَما هُوَ فَيُعمِّدكُم بالرُّوح القُدُس (٩) وفي تِلْكَ الأيَّام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعْتَمَد مِن يُوحَنَّا في الأُرْدُنّ.

---

(١) يكرز: يعظ.

(٢) سير أو سيور حذائه: رباط من جلد يربط به الحذاء وكان الخدم موكلون بفك هذا الرباط.

جاء في الأصحاح الثالث من إنجيل لوقا:

(١٥) وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعلّه هو المسيح (١٦) أجَابهم يُوحنَّا أجمعين قائلاً أَنا أُعَمِّدُكُمْ بالماءِ ولكن يأتي مَنْ هُوَ أقوى مني وأَنَا لا أَسْتَحِقُّ أن أَحُلَّ سُيُور[١] حذائه وهو يُعَـمِّـدُكم بالروح القُدُسِ وَالنَّارِ (١٧) الذي بِيَـدِه المِذْرَى يُـنَـقِّي بَـيْـدَرَهُ ويجمع القَمْحَ إلى أَهْرَائِـهِ ويُحرِقُ التّبن بنارٍ لا تُطْفَأُ.

فمن هو ذاك الأقوى الذي بشّر به يوحنا المعمدان؟ ولو كان المسيح هو الشخص الذي تنبأ به المعمدان على أنه أقوى منه لما كان هناك من معنى لتعميده في النهر على يد شخص أقل منه وهو يوحنا المعمدان الذي عمّده كمثل أي يهودي، فهذه الإشارة من يوحنا المعمدان هي من الوضوح بحيث لا تحتمل إلا وجهاً واحداً وهو أن نبياً يأتي بعده هو أقوى منه.

ثم لنتساءل هل عمّد عيسى عليه السلام (بالنار) كما ذكر المعمدان وهو إشارة إلى أن النبي المنتظر الذي سيأتي من بعده سيأتي بقوة عظيمة ليبيد الفجار ولينتقم من الأشرار وليمكن للحق والعدل في الأرض بسيفه ورمحه، لا لم يحدث شيء من ذلك مع عيسى عليه السلام ولكن حدث مع نبي الإسلام الذي شهر الحرب في وجه أعدائه الذين اضطهدوه وانتصر عليهم ودانت له كل جزيرة العرب.

وعلى هذا الذي قدمناه يكون المقصود من قول يوحنا المعمدان: «يأتي بعدي من هوى أقوى مني» هو نبي الإسلام قطعاً لأنه صاحب شريعة مستقلة عن شريعة موسى أما يوحنا المعمدان وعيسى فلم تكن لهما شريعة جديدة مستقلة عن التوراة بل كانا يدعوان الناس إلى شريعة موسى ويعملان بها.

هذه بعض المبشرات اقتصرنا على ذكرها خشية التطويل والخروج عن الهدف المقصود وهو تفسير القرآن.

---

(١) سير أو سيور حذائه: رباط من جلد يربط به الحذاء وكان الخدم موكلون بفك هذا الرباط.

من المراجع

جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

تفسير الكشاف للزمخشري

تفسير القرآن العظيم لابن كثير

تفسير البيضاوي مع حاشية الشيخ زاده

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي

فتح القدير للشوكاني

تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي

التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي

تفسير اللباب في علوم الكتاب للحنبلي

تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا

روح المعاني للألوسي

التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي

تفسير الشعراوي

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر

البشارة بنبيّ الإسلام في التوراة والإنجيل للدكتور أحمد حجازي السقّا

محمد في الكتاب المقدس تأليف عبد الأحد داود

الفهرس

كلمة الشكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني:

إلى أصحاب **دار العلم للملايين** الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص.

وإلى فضيلة الأستاذ **الشيخ محمد شريف سكر** الذي تفضل فراجع هذا التفسير.

وإلى **فضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين غزال** على بعض ملاحظاته القيمة.

وإلى **د. هدى سنو** ذات الكفاءة العالية على جهودها الكريمة في تصحيح هذا التفسير بعد تنضيد أحرفه وعلى بعض ملاحظاتها القيمة.

وإلى **د. محمد مرعشلي** على ما أسدى إليّ من معونة وجهد في هذا التفسير.

وإلى **الأستاذ توفيق الحوري** عميد كلية الإمام الأوزاعي على الإنجاز العظيم الذي حققه بجهوده الكريمة بإنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي التي اشتملت على عشرات الآلاف من الكتب النفيسة والتي قدمت لي ما أحتاج إليه من المراجع العلمية.

وإلى **جامعة بيروت العربية** لما قدمته لي مكتبة كلية الآداب فيها من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام.

سائلا الله أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه

عفيف عبد الفتاح طبارة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي
  باللغة الإنكليزية

- روح القرآن
- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طّه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف



هذا التفسير
• يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
• يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
• ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
• يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
• يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
• يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.
ISBN 9953-9-0507-X
دراسات إسلامية
9 789953 905075 5
الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين